

جمال الغيطانى

أيام الحصر



** معرفتى **
www.books4all.net
منتديات سور الأربكية

أخبار اليوم

مطبوعات قطاع الثقافة

دار
أخبار اليوم



رئيس مجلس الإدارة :

محمد عهدي فضلى

مدير عام قطاع الثقافة :

نبيل أباظة





لِدَارِ الْكِتَبِ وَالْوَثَائِقِ الْقَوْمِيَّةِ

بطاقة فهرسة

فهرسة أذناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية ادارة الشؤون الفنية

الغيطاني ، جمال .

أسرار من العالم الآخر . جمال الغيطاني . -

ط١- القاهرة : قطاع الثقافة ، ٢٠٠٦

١٤٤ ص : ٢٠ سم .

٩٧٧ . ٨ ١٢٥٩ ٥ تدمك

١ - الغيطاني ، جمال - المذكرات

٢ - الرحلات في الأدب

أ - العنوان

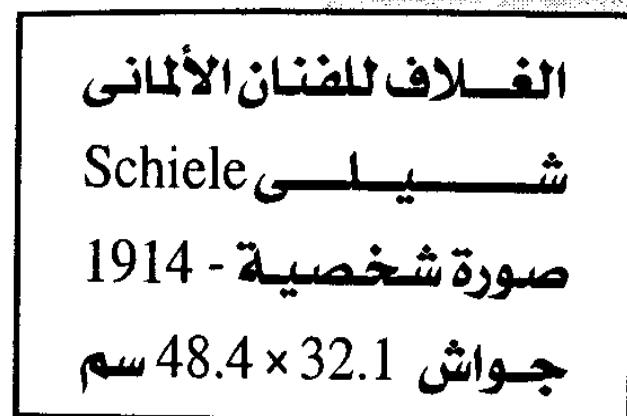
أيام الحصر

** معرفتى **

www.books4all.net

منتديات سور الأزبكية

جمال الغيطانى



• العنوان على الانترنت
WWW. akhbarelyom. org\ketab
• البريد الالكتروني
akhbar el yom@akhbarelyom. org

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة القاهرة
تلفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

باريس

14 ديسمبر 2004

الخامسة بعد الظهر

ليس التداعى بسبب بدء ما جرى لى فى ميونيخ أول أكتوبر الماضى ، إنما لخروجى بصحبة ماجدة زوجتى من باب الفندق الصغير ، القديم ، إلى شارع راسين بالحى اللاتينى ، وجهتنا مستشفى بونتواز بضاحية لم نطأها من قبل ، نتبع وصف صاحبى ، الأديب ، الطبيب سورى الأصل ، باريسى الإقامة ، خليل النعيمى .

برد ..

برد مماثل تماماً لذلك الذى لفحنى عندما خرجمت من باب الفندق القريب من المقر الرئيسي لمعهد جوته فى مدينة ميونيخ ، كان ذلك ذات صباح من شتاء عام ثمانية وتسعين من القرن

الماضي ، منذ ست سنوات .

رجل وامرأته ، من الإمارات العربية ، يرتدي جاكتة من الصوف تحتها جلباب أبيض خفيف ، امرأته في ملابس سوداء ، يبدو أنهما لم يتحسبا للبرد الأوروبي في هذا الوقت من العام ، في هيئتهما معاً تبدو الحيرة ، الرجل يمسك بيده أوراقاً ، مد لى إحداها ، عنوان مستشفى ، الرجل لا يعرف الألمانية ولا الإنجليزية ، قال إنه كان ينتظر أحد معارفه ، لكنه لم يأت ، موعد الطبيب يقترب ، إذا فاته سيصبح الأمر صعباً ، تم تحديده منذ شهرين . نبهته إلى البرد ، قال إنه يرتدي ملابس داخلية صوفية ، لكنه سيشتري معطفاً ، المهم الآن .. المستشفى ، أعرف موقف التاكسي القريب عند الناصية ، صحبته إلى حيث تقف العربات صفراء اللون من طراز مرسيدس ، لحسن الحظ كان السائق تونسياً يتحدث العربية ، أوصيته بهما ، أن يطمئن إلى دخولهما المستشفى ، كان ذلك أقصى ما يمكنني تقديمها من مساعدة ، كنت غريباً مثلهما ، مرتبطاً بموعد ، جاهلاً مثلهما بلغة أهل البلد ، حيرة الرجل وطريقة إمساكه بالأوراق سوف أستعيدها مراراً فيما تلى ذلك من وقت ، وعندما قدر لى أن يحدث ما حدث في ... ، لكن بعد ستة أعوام تقريراً ، عندما أسترجع اللحظة أغرق شفقة على مجهول لم أعرف اسمه ، أو المرض الذي يعانيه ، بل إنني لم استوثق إذا كان هو المريض أو زوجته ، وإن كانت هيئته الماثلة ، الثابتة عندي بحيرته فوق الرصيف المحاذى لمدخل الفندق ترسخ

يقيني بأنه هو وليس هي .

نقف أمام الفندق الذي اعتدت الإقامة فيه منذ سنوات ، حتى عندما أتلقي دعوة لمناسبة ما فإنني أطلب الحجز فيه ، رغم أنه نجمتان والجهات الداعية مثل الجامعات أو دار النشر أو معهد العالم العربي تحجز عادة في فنادق ثلاثة نجوم ، أفضل الإقامة في مكان محدد ، يعرفني ناسه وأعرفهم ، وهذا ما تحقق في فندق الفاكولتيه ، ليس الفندق فقط ، إنما المطاعم والمكتبات القريبة منه . لانتوقف بسبب حيرة ، إنما لمراجعة العنوان ، والمسار الذي سنسلكه . رغم أنها الخامسة إلا أن الليل نزل ، النهار كله مدثر بالضباب ، برد غير عادي بالنسبة للوقت ، درجة الحرارة تحت الصفر ، سألت خليل بالأمس عن المدة الالزمة لوصولنا ، قال إنه يقدرها بساعة ، غير أنني أحتاط لأى طارىء مفاجئ ، مثل الخطأ في ركوب اتجاه المترو ، أو حادث ما - رغم ندرتها تحت الأرض - أى طارىء لا أدرى به ، لذلك آثرت خروجنا مبكرين ، خاصة أنه ليس لدينا ارتباطات أخرى ، وأن هذا الموعد متصل بموعد آخر مع طبيب الصدر في مستشفى آخر ، إنهم الهدف الحقيقي لهذا السفر ، لجئنا إلى باريس بعد حضورنا مؤتمراً أدبياً في مرسيليا . بذل خليل جهداً ليحجز لى موعداً للكشف ، وتصوير الرئتين بواسطة هذا الجهاز الحديث جداً للأشعة المقطعة ، لا يوجد مثله في مصر ، لابد من الحجز قبل شهر على الأقل ، قال بالأمس وهو يضع صور الأشعة الملتقطة في مصر إنه لابد من أخذ صور

بهذا الجهاز الذى تتوافر لديه إمكانية التشخيص ، يظهر الأبيض من الأسود ، فإذا بان الأبيض ، عندئذ ينتفى الخطر ، ولا تكون ثمة حاجة للعرض على الدكتور ليفى ، الذى تبدأ الحاجة إليه إذا أسرف الوضع عن الأسود ، هكذا عبر الدكتور خليل ، إما أبيض أو أسود ، تلك أهمية هذا الجهاز المتطور للأشعة المقطعة ، لذلك لابد من الوصول قبل الموعد بخمس أو عشر دقائق ، لقد بذل جهداً كبيراً ليحطونى على « الاسكانر » لذلك يرجو عدم التأخير .

على مهل اتجهنا عبر شارع سان ميشيل إلى محطة لوكسمبورج المواجهة للحديقة الشهيرة التى شيد الخديو إسماعيل على غرارها حديقة الأورمان بالجيزة ، نمر بساحة السوربون ، مدخل الجامعة العريقة يعلوه القبة ، قبة جامعة القاهرة شرقية الطراز ، أضخم ، قرنت عندي ما بين القبة والجامعة ، منذ طفولتنا اعتدنا رؤيتها فى الأفلام المصرية ، ومنح عندي اليقين ، مامن جامعة إلا ولها قبة ، لذلك دهشت عندما زرت جامعة عين شمس ، لم أجد إلا مجموعة مبان متجاورة ، وما من قبة !

هنا قلب باريس الثقافى ، أحياناً أقيم لمدة أسبوع ، لاتتجاوز حركتى تلك الطرق العتيقة المتفرعة من الشارعين المتقاطعين ، بوليفار سان جرمان وبوليفار سان ميشيل ، كأنى أقطع المسافة

من مصر إلى الحى اللاتينى بالتحديد ، قلت ذلك مرة لصاحبى
مصطفى صفوان ، فأجاب : ذلك يكفى !

أدرك أثناء خطوى عمق الذكريات المرتبطة بتلك المدينة التى تلى
القاهرة مباشرة من حيث ارتباطى بالأمكنة وتوزعى على
النواسى والواجهات والمقاهى ، منذ ستة وعشرين عاماً أتردد
عليها بانتظام ، على الأقل مرة فى السنة ، خمسة وعشرين عاماً
منذ وقعت عقد الاتفاق على ترجمة روایتى « الزينى بركات » ،
عشرون منذ صدورها عام خمسة وثمانين ، بعد خمسة شهور
سأتم عامى الستين ، السن القانونية للتقاعد . من الزمن بسرعة .

أتأبط المظاريف الكبيرة الحاوية لصور الأشعة الملتقطة للصدر
منذ عام ستة وتسعين قبل وبعد إجراء عملية القلب إلى تلك
المتعلقة بالأختير ، كأن دقة الموعد ، ودلاله مصيريته بالنسبة لي ،
إلا أننى كنت محايضاً تماماً ، كأن الأمر يخص غيرى . أهم ما يتقدم
على ماعداه الوصول فى الوقت المناسب ، ألا يحدث خطأ نضل
بسبيبه الطريق ، أعرف التعامل مع خطوط المترو التى تصل أطراف
باريس ببعضها ، لكننى أجهل خطوط الضواحي تلك ، مساراتها
أعمق تحت الأرض ، قطاراتها مغایرة ، اتقان ماجدة للغة الفرنسية
عامل مطمئن ، فنمضى متجاورين ، أحرص ألا أسبقها
ولو بسنتيمترات ، نتدانى ، نمضى ، هكذا الشأن عند مضينا إلى
لحظات دقيقة ربما تحدد ما بعدها وما قبلها .

ميونيخ

أول أكتوبر 2004

ما

ما هذا ؟

ماذا يجري لي ؟

حال مستجد ، لم أعرفه من قبل ، لكل جسد أعراضه المدونة في الذاكرة ، ما يثير شوئي تلك التي لم أعرف مثلها ، لا دراية لها بها ، أتطلع إلى المرحاض الخزفي ، أبيض ، الماء داخله ساكن ، لم تختلط به نقطة بول واحدة قادمة مني ، ما من نقطة واحدة ، ثمة شيء لا يمكن تحديده ، يحول بينه والخروج رغم وخذ مثانتي .

أتراجع قليلاً ، أشفط بطني ، أتمهل في إعادة عضلاتها إلى وضعها الطبيعي ، تراجع يليه تقدم ، قبض قمت به مراراً يؤدى إلى انفراجة يتدفق معها البول ، أعرف ذلك ، لكن في المرات السابقة يخرج قدر أوقفه عامداً ليصير الدفق أغزر .

لا ..

ما من استجابة ، سد ، انغلاق دائرة محكم ، مرة أخرى أمسك شهيقى ، أضغط الهواء إلى تحت ، أحزرق ، أكتم النفس ليتضاعف الضغط ، لكن .. مامن رد فعل ، بل إن محاولة تحكم القفلة أكثر .

أطلع إلى المرأة المواجهة ، أمط شفتي ، كأنه رد فعل على آخر خفي يصف ما جرى له ، يبدي خشيتها ، دهشته ، تعجبه ، صورتى في المرأة تنفي عنى بعضاً من ذلك الخوف الغامض ، أحوارها ، أحوارنى قبل الإقدام على رد فعل معلن . أتلفت حولى ، دورة المياه الضيقة ، صممته بحيث يستغل كل مليمتر ، تتشابه حجرات هذه السلسلة من الفنادق ، عرفتها من قبل ، في ليزج ، هنا ، هذا المبنى عام ثمانية وتسعين ، ينزل فيه ضيوف معهد جوته لقربه من المقر ، فقط .. عبور الطريق .

أحاول التشاغل بمنفسي عن نفسي ، أحاليلى ، كأن ما عرض لم يجر ، لم يقع ، لا يتصل بي ، أبدأ العودة إلى الحجرة كأننى لم ألجها ، كأننى لم أفكر في ولو جها بعد ، أو كأننى أديت غرضى ، ليس مستغرباً أن أعود بعد دقائق أو لحظات ، اعتدت ألا أغمض عيني إلا بعد تأكدى من إفراغ كل نقطة بول ، أحياناً ، خاصة في الشتاء أتردد مرات ، لا تنزل إلا قطرات معدودات ، المهم أن يتلاشى إحساسى تماماً بوجود أية قطرة ، ربما بتأثير ضيق عتيق ينتابنى في سنوات الطفولة ليلاً عقب تبولى في الفراش ، دورة المياه خارج الغرفة ، السطح فسيح ، مظلم ، بارد ، الانتقال من الدفء إلى برودة الفراغ ولفح الرياح مؤلم ، كذلك إيقاظ أمى أو أبي ليصحبى أحدهما ، العتمة مخيفة ، مسكونة بما لا نعرفه ، بما قد يلحق الأذى بنا ، بما لا يمكننا مواجهته ، بما قد يسكننا إلى الأبد ، أتخلص من الوخذ على مراحل ، غير أن البطل ورائحة الصنان تضايقنى ، من تلك الليالي صحبتى رائحة البول هذه

التي لا تشبهها أخرى ولا تدانيها ، لها مراحل ، لا تبدأ إلا بعد خروجه وتشتد مع ركوده في الشتاء ، على أن أوفق بين متناقضين ، تخلص مما يزحم مثانتي ، وشرب الماء خشية العطش أثناء النوم ، هاجس قديم لا أدرى مصدره ، لا يمكث الماء كثيراً في الأيام الباردة ، لذلك أتردد مرات على الدورة ، بعد فراغي أشرب ولو قطرات تنفي إمكانية الإحساس بالظماء ، إلى أن يغلبني النوم .

أجلس إلى حافة السرير الضيق ، الشارع في متناولى . لا يحجبني عن المارة إلا ستارة خفيفة مغبشه ، يمكنني أن ألمع بعضهم ، أجهلهم كما يجهلون دقة الظرف الطارئ لا .. من المستحسن إلا أفك فيه ، أن أنفي أى خاطرة أو واردة ، لعل عارضاً عصبياً ، ربما مصدره ذلك التوتر الذي يصاحبني عند السفر ، أو تأهبي الداخلى لندوة الليلة وما سيعقبها من تناول عشاء قد يؤدى بنا إلى السهر ثم الاستيقاظ مبكراً للسفر إلى برلين ، صباح اليوم أبدت السيدة كريستين دهشتها من ذلك الموعد المبكر الذي لا ضرورة له ، إقلاع في السادسة صباحاً يعني ضرورة مغادرة الفندق في الرابعة والنصف على أقصى تقدير ، لا توجد ارتباطات في برلين ، بل إن الموعد المحدد للندوة بعد يومين ، مساء الاثنين ، قالت إنها ستحاول تغيير الموعد إلى ما قبل الظهر ، سيقتضي ذلك دفع غرامة لكل بطاقة ولكن هذا أفضل ، حتى الآن لم أتأكد من تغيير الموعد ، يقضى ذلك الرحيل المبكر ، إلا أستطيع النوم ، دائماً أتشاغل بما لم يحل أوانه بعد ، بالاتى ، ربما هذا سر توترى ، انتقاء اعтиادى على الانتقال رغم تعدد

أسفارى ، ربما هذا الماء الذى شربته قبل الغذاء ، ربما مصدر خفى لقلق قديم ، خلال السنوات الأخيرة يضطرب تبولى ، يتعاقب وتنقارب نوباته بدون سبب واضح أو تأثير مباشر ، أحياناً ينسال بصعوبة ، أوقف سلساله ، أستأنف ، كل هذا أعرفه ، لكنى مباغت بما جرى منذ قليل ، ما أحاول الزيف منه ، الالتفاف عليه باستزان التجاهل ، يتعاقب الوخذ ، أقوم قاصداً دورة المياه وكأننى لم أدخلها منذ الصباح ، أسحب السوستة التى أحكمت إغلاقها إمعاناً فى التخفي ، أرخى داخلى حبالاً وخيوطاً غير مرئية ، أكاد أخاطب وجودى الحسى بصوت منطوق ، ألا يخذلنى ، أن يؤدى فقط ماعهده منه ، أحاول أن أهدأ قليلاً ، إلا أننى مشدود ، متطلع ، متجل ظهور ولو نقطة واحدة تكون مقدمة .

لا ..

لم أعرف مثل ذلك ، هذا جديد ، بغيض ، مخيف ، ما أحاول دفعه يتقلب داخلى مثيراً الوخذ الأشد ، أعمق ، ينفذ إلى نقاط لم يطلها شيء من قبل ، يتقلب داخلى فى حيز مغلق لم يعد له مخرج ، أو منفذ ، أستدير إلى الجدار الآخر ، لا يعنينى الآن التصويب إلى المرحاض بالتحديد ، المهم أن يظهر القطر ، أن يطل ولو قدر يسير يخفف عنى هذا المتراكم الثقيل ، المزداد ثقلأً فى كل لحظة ، ماعليه الآن أشد مما كان عندما بدأت المحاولة .

أخرج إلى الفرفة ، أتخلص من البنطلون ، من السروال ، نصفى الأسفل مسفر ، أمضى إلى النافذة ، أرتد ، أخطو أسرع ،

لا أدرى ماذا أفعل ، إلى من أتجه ، هل أقدم الآن أم أواصل المحاولة . لا .. أواصل لعل وعسى ، الوقت يمضي ، تبدأ الندوة فى السادسة ، أعلن عنها منذ شهر فى برنامج المعهد ، جئنا من مصر خصيصاً ، جرى هذا الترتيب كله ، مالم أتحسبه ، مالم أتوقعه هذا العارض الغريب على ، أتطلع إلى الساعة ، لو قطرات يعقبها تخلصى من بعض ذلك العباء يمكننى الذهاب ، فقط بعض مما تمتلىء به مثانتى التى بدأت تصبح مركزاً لألم ينفذ إلى سائرى ، لا يمكننى الجلوس ، ولا الوقوف ، لا الاستدارة ولا الانحناء ، أجهل بل أضل عن الوضع الذى يمكن أن يخفى عنى ، بل إننى بدأت أبالغ فى انحنائى ، أتقلب ذات اليمين وإلى الشمال ، أقوم وأقعد ربما يقع ما أرجوه ، بل إننى قفزت مرات ربما تنفتح ثغرة ولو ضئيلة .

فوات الوقت ، تضاعف الضغط ، بدأ يقينى أننى أواجه مالم أعرفه ، تصاعد الأمل ، الحيرة فى الوجهة ، رفيقتنى فى الرحلة كلاهما مثل ابنتى ، إداهما تخرج من مصر لأول مرة ، لا حيلة لها ، ثم أن الأمر دقيق ، ماذا سأقول لهما ؟ ، ليس أمامى إلا الاتصال بصاحبى المصرى المقيم فى ألمانيا منذ عام ستة وخمسين ، تعرفت عليه عام ثمانية وتسعين ، اتصلت بیننا المودة ، عمل صحفياً فى بيروت ، فى صفوف المقاومة ، دائم الحديث عن هموم الوطن والأمة ، خاصة القضية الفلسطينية ، ليس صديقاً فقط ، إنما هو زوج السيدة كريستين التى أعدت البرنامج الذى نشارك فيه ، على صلة بمعهد جوتة ، يمكنه أن يفعل شيئاً ، أن

يبدأ العون ، أتطلع إلى الساعة ، لم يتبق إلا أربعون دقيقة على بدء الندوة ، فلأبذل محاولة أخيرة قبل الاتصال بمجدى ، ربما يلتمس بعض الراحة ، ليس أمامى غيره ، حتى لو طلبت من الفندق استدعاء طبيب كيف سأتفاهم معه ، كيف أشرح له حالى ، أنا الغريب تماماً ، الجاهل بلغة البلاد ، بمجرد بدء المحاولة تزايد هذا التقلب داخلى ، تعمق الوخذ كدت أنطق ألمى غير أنى حشته .

طرقات على الباب ، أرتدى بنطلونى بسرعة ، أفتح ، يقف مجدى مرتدية معطفه ، يقول إنه ينتظرنى فى الاستقبال ، يجب أن نتحدث قليلاً مع بعضنا البعض قبل مواجهة الجمهور .

« أى جمهور ؟ يظهر أنه فيه مصيبة ، لا يمكننى التبول .. »

« منذ متى ؟ »

« منذ عودتى إلى الفندق .. »

« لاتقلق .. سأتصل بطبيب الطوارئ .. »

« ألا يمكن الذهاب إلى أخصائى مسالك بولية ؟ » .

« اليوم جمعة ، عادة ما يذهبون إلى عطلة نهاية الأسبوع مبكرين .. لاتقلق .. » .

معقول هذا ؟ مدينة كبيرة مثل ميونيخ لا يمكن العثور فيها على طبيب مسالك بولية ، على أخصائى ؟ ، لم أنطق مافكرت فيه بداعي الخجل ، دائمًا الخجل حتى عند اقترابى من ذرى الخطر ، من الخط الفاصل ، بعد طول مدة ألم بمصدر كثير مما لحق بي ، بما

ارتد إلىّ ، ذلك الخجل ! .

ربع ساعة تقريباً مابين نطقى إلى أول إنسان بما حل بي وبين وصول الطبيب ، دخل الغرفة مرتدياً جاكت من الجلد ، تحته بلوفر من الصوف ، يمسك بحقيقة سوداء نسبياً ، عندما فتحها فوق المكتب الصغير المثبت إلى الجدار ، رأيتها مقسمة إلى خانات بعضها مربع والأخر مستطيل ، لفافات بيضاء ، زجاجات صغيرة ، أنابيب طويلة دخل أغلفة من البلاستيك .

أصغى إلى ما قلته ، مجدى يترجم ، يبدو أنه أدرك الحالة ، مدرب على مواجهة مثلها ، طلب مني أن أتمدد على ظهرى ، أن أزيح بنطلونى إلى أسفل ، السروال أيضاً ، أولانى ظهره ، رفع ساقه بحيث أصبح فوقى ، قدم فوق أرضية الغرفة ، أخرى فوق السرير ، هذا الوضع نبهنى إلى ضخامة تكوينه ، لم أعرف اسمه ، لم يقدمه مجدى إلىّ ، غير أننى سمعته يذكر اسمى ، ربما قال له إننى كاتب معروف ، لكن ماذا يعني هذا بالنسبة له ، إننى مجرد حالة مما يعرض له ، أين كان بالأمس وأين كنت ؟ ، بل منذ ساعة قبل مجئه إلى هنا ؟ . أصمت بينما يغيب الألم وكأن توقع ما يجرى يكتمه ، يسكت مصادره في انتظار ما سيجرى .

.. ٥٦

مضطراً أنطق الألم ، مالم أعرفه من قبل ، يشد عضوى مدخلأً أنبوباً فيه ، لم أره ، يولينى ظهره ، غير أن نتاج عمله يدمينى كلى ، عمود نحيل ملتهب ينفذ عبر المجرى الضيق ، يتضاعد

الوخر، يسحب ذلك الشيء الذى لا أراه ، يعاود محاولة إدخاله مرة أخرى ينتشر حرقان مصحوب بوخز كأنه يصب داخلى شطة حارقة ، يجرى لى ذلك لأول مرة عبر هذا الجزء الدقيق من جسدى ، يلتفت إلى مجدى ، تعبيرات وجهه غير مطمئنة ، مقلقة .

« الانسداد كامل .. »

أصفى إلى ما يتعلّق به وكأنه قادم من بعيد ، قاصد البعيد ، أدرك حراجة الموقف ، لو لا الألم الكامن ، القديم ، والوارد المحدث لا يكتمل صمتي وقت حياديّة الغريبة تلك ، عند مواجهة الموت مباشرةً زمن الحرب ، انفجارات القنابل ، دخان الرصاص ، الشظايا المارقة ، تحل بي تلك الحيدة ، إذ ينتهي الموقف أستعيده فأخاف بأثر رجعى وقد لا يغمض لى جفن بسبب استدعائي ما حل بي ونفاذى . هل سيقدر لي استعادة تلك اللحظات ، روایتها بصيغة الماضي ؟ .

« سنستدعي الإسعاف .. »

عندما تراجع الطبيب الألماني عنى ، وقف يلملم حاجاته ، يعيدها إلى الغرفة ، تطلعت إلى الأسفل ، دم ، دم ، مصدره عضوى ، كانت فتحة البول تبقي دماً ، بعض النقاط تجمدت ، بقعة صغيرة فوق ملأة السرير ، ماذا سيقولون في الفندق ، ألم يكن ممكناً تفادي ذلك ؟ .

طلبتقطناً ليستوعب الدم ، يخرج مجدى ليجرى اتصاله ، يوليلى الطبيب ظهره خارجاً بدون أن ينطق كلمة ، أذكر قوامه

الضخم ، وضعه الذى اتخذه فوقى ، لايمثل عندي أى سمت من ملامحه .

صار لدى مصدراً لل الألم ، ذلك التزايد مع تكاثر البول داخل المثانة وتقلبه ، وذلك الجرح الذى أشعر بكمونه الدفين داخل نقطة غائرة فى صميم عضوى ، لم أعد أحاول المرواح والمجىء ، ماذا سيجرى فى اللحظة التالية ؟ ماذا سيحدث لي ؟ ، لم أكن خائفاً إنما كنت متألماً ، متجمداً لوقوفى على مجھول ، وكافة إمكانيات الخطر داخلى ، امتلاء المثانة إلى حد لا تقدر عليه ، البرد ، عدم استيعاب الجسد لأى سوائل إلا بقدر يسير ، ربع ساعة أخرى ، دخل الغرفة ثلاثة يرتدون ملابس الإسعاف ، لم أستوعب ألوانها ، ولا ملامحهم ، كانت داكنة ، إما سوداء أو زرقاء ، يحيطون بسرير متحرك ، تمددت فوقه ، شدوا ثلاثة أحزمة أوثقتنى إليه ، عندما أغلق مجدى الغرفة لحت فوق الأرض غلاف الأنبوب الذى كان الطبيب يحاول إدخاله ، قطن ، علبة فارغة ، كيس بلاستيك شفاف ممزق احتوى شيئاً ما ، كنت قادراً على المشى حتى عربة الإسعاف ، صحيح أننى مضطر إلى الانحناء لشدة المنيع من داخلى ، لكن يبدو أنه النظام المتبعة ، لحت موظفة الاستقبال ، هى نفسها التى أخذت منها مفتاح الغرفة عصراً ، تتطلع إلى بفضل وربما إشفاق ، يناولها مجدى المفتاح بعد إغلاقه الغرفة ، أمام الفندق تقف عربة الإسعاف ، تدور أضواء المصايبع المعلقة فوقها ، زرقاء فاقعة ، يتصل السرير بضميم السيارة ، صوت آلى يصاحب ارتفاعه ودخوله ،

يجلس الثلاثة ومجدى متقابلين ، غرفة صغيرة متحركة ، ثمة أنابيب معلقة ، أجهزة لا أعرف وظائفها ، مع حركة العربة ينتهى وضع المترقب والذى قمع ألمى إلى حد ما .

«أهذه عربة إسعاف حقاً» .

لاتطلق صفاره الإنذار التي تفسح لها الطريق ، تجعل العربات الأخرى تلزم جانباً ، فى أوروبا القانون صارم ، عندما كنت أجلس إلى جوار صاحبى المرحوم على الشوباشى فى باريس ، وإذا نصفي إلى صوت السارينة المتقطعة ، الأمرة . يجتهد على الفور لكي يتنهى بعيداً . ها أنذا فى عربة إسعاف ، فى مدينة أوروبية كبرى بعد أقل من أربعة وعشرين ساعة من وصولى إليها ، أتجه إلى مستشفى لا أعرفها ، أجهل الشوارع التي نسلكها ، لكننى أجهل السبب الذى من أجله تمشى السيارة على مهل ، أبطأ من أى عربة أخرى فى الشارع مامن صوت ينبئ منها محذراً السيارات الأخرى بالإبعاد والتنحى ، بل إنها تتوقف عند كل إشارة ، وعلى مسافات متقاربة جداً ، الساعة حوالى السادسة ، الندوة تبدأ الآن ، منصورة وزهرة بمفردهما ، ستقدمهما كريستين وسوف تعذر للجمهور عن عدم حضورى بينما أمضى موثقاً فى هذه العربة الغريبة إلى مجهول ، إنها فترة الزحام بعد انتهاء يوم عمل وخروج كثيرين إلى عطلة نهاية الأسبوع ، يتعبنى الألم المترا욱 ، اضطر إلى الأنين ، إلى إطلاق الآهات المكتومة ، يتطلع إلى الثلاثة بجمود ، اعتادوا مثل ذلك ، ينطق مجدى بعض الكلمات مشجعاً ، أسأله عن بطء العربة وعدم إطلاقها السرينة ، يقول إن ذلك لا يتم إلا إذا كان

المريض مهدداً في حياته ، أتساءل متعجبًا ، وماذا عن مثانتي المهددة بالانفجار في أي لحظة ؟ ، تطول المسافة مع السرعة المتمهلة ، مع عدم استيعابي لما قاله مجدى ، أسأل عن المسافة المتبقية ، يؤكد مجدى أنها دقائق قليلة ، يتضاعف ألمى ، أحاول استدعاء الأقربين ، البعيدين جداً عنى الآن ، ماجدة في الطائرة ، في نقطة ما متغيرة باستمرار مابين القاهرة وفرانكفورت ، مدعوة من برنامج متصل بمعرض الكتاب تنظمه وزارة الخارجية ، محمد في لندن يواصل الرحلة التي نظمها المعهد الدبلوماسي ، ابنتى في القاهرة ، أشقاء في مدينة نصر ، أولئك الذين أعرفهم ويمكننى التفاهم معهم في شوارع القاهرة ، وتلك المدن ، وهذه القرى المتعددة من شواطئ البحر الأبيض إلى أقصى الجنوب ، تتعاقب على ملامح شتى ، وإمكانيات مجھضة وبدائل مستحيلة ، وينطلق ألم يحتوى هذا كله ، لاراد عليه ولا مخرج إلا الأنين الذي يختزل صراخًا يمنعى الخجل من إطلاقه .

«أى عربة إسعاف هذه ؟ أى إسعاف»

يقول مجدى مهدئاً

«وصلنا ..»

على مهل ينزل الرجال الثلاثة - ما ضرورة هذا العدد إذا كانوا لا يتحركون كما أتوقع ؟ - يتحرك السرير آلياً ، عندما يستقر فوق الأرض ، يدفعونى إلى داخل المبنى الذى لم أر منه إلا بوابة وسوراً ، لم أستوعب الواجهة ، نعبر صالة عند مدخلها مكتب

جدرانه زجاجية ، يتحدث إلى سيدة تجلس في الداخل ، تدون أمراً ، يستمر دفع السرير ، يستقر داخل حجرة فسيحة ، يفك الرجال الثلاثة الأحزمة التي توثقني ، يتقدم طبيب في الثلاثينات ، يرتدي ملابس غرف العمليات الخضراء ، يتحدث إلى مجدى يستفسر مني ، يطلب مني التمدد على السرير مفروش بملاءة من ورق . هنا يبدأ إيقاع الحركة في السرعة ، ممرضتان أو ثلاث يتحركن بسرعة ، تركيزى كله متوجه إلى الطبيب الذى نقل مجدى إلى مقاله في لقاء متأخر ، عقب تلك الليلة بعدة شهور وبضعة أيام .

« لابد أن أنقذ هذا الرجل .. »

مرة أخرى أتجدد من ملابسي . أكشف نصفى الأسفل تماماً ، من أنبوب ضخم يدهن بطنى وعانتى بمادة لزجة ، يمسك بطرف جهاز الأشعة الصوتية ، قطعة ما بين دائيرية ومستطيلة ، يحركها بيده ، متصلة بالجهاز عبر سلك طويل ، يمكننى رؤية الشاشة ، عرفت مثل هذه الآلة عندما مررت باختبارات عديدة قبل عملية القلب عام ستة وتسعين ، يبدو أن هذا الجهاز أصغر ، أكثر تطوراً ، على الشاشة تكوين يشبه المثلث ، يتحرك الطبيب بخفة ودربة .

تلك مثانتى ، يمكننى أن أرى النقاط الغامقة التي تشكل خطوطاً ، ينتهي إلى أعلى تاركاً فراغاً ضئيلاً جداً لا يتجاوز السنتمتر ، ربما أقل .

« إنها ممتلئة .. »

يخبرنى مجدى بدقة الوضع ، إننا وصلنا فى التوقيت المناسب ، لو تأخرنا نصف ساعة لانفجرت المثانة ، يتناول الطبيب كيساً مستطيلأً من البلاستيك ، يخرج منه أنبوباً يتصل بانتفاخ كالبالونة الصغيرة ، يشد عضوى مرة أخرى ، يولج الأنبوب ، ينتابنى هذا الوخز الضارى ، غير أنه لا يستمر فى المحاولة ، يتحدث إلى مجدى الذى استدار إلى ليخبرنى بما أفزعني ، بما جعل رجفة تدرك قلبي للمرة الأولى ، كان الطبيب الأول عنيفاً ، لذلك أصاب مجرى البول بالتواء ، لن يمكنه إدخال القسطرة من العضو ، مضطراً إلى فتح البطن إنقاذاً للموقف ، تبدأ المرضية حلاقة شعر البطن ، ما تحت الصرة ، يقول إنه سيدهن الجلد بمرهم مخدر ، سأشعر بعده بالبرودة .

التواء فى المجرى ؟

إلام يؤدى بي هذا ؟

أسمع مايقوله الطبيب بهدوء ، كأنه يخص غيرى ، أعرف حالى هذا عند اجتياز الخطر ، أرقب ما يجرى الآن ، الآن ، تتم الأمور بسرعة ، يغرس الطبيب مايشبه الحقنة ، ينبعق ماء إلى أعلى ، ربما يحدد اتجاهه نحو المثانة ، أركز فى السقف لثوان ، أنبوب طويل يمسك به ، ما من ألم إلا عندما بدأ يثبته بسلك ، ينتهى الأنبوب بما يشبه صنبور صغير من البلاستيك ، يدبر مقبضاً ، يتدفق البول إلى إناء زجاجي « عندما تشعر بامتلاء المثانة تفعل هكذا .. »

طلب منى الانتظار نصف ساعة فى الخارج ، تمتد صالة الانتظار فى الضوء الليلي البارد إلى أبواب مغلقة تؤدى إلى

الداخل ، لم يكن إلا مجدى الذى يصحبنى صامتاً الآن ، أستعيد
ما جرى خلال الساعات الثلاث الماضية ، لا أعرف ما سيجرى
الليلة ، أو غداً ، بالأمس ، فى مثل هذا الوقت نقترب من مطار
فرانكفورت ، كان ما يشغلنى تغيير الطائرة ، المسافة المتاحة حوالى
نصف ساعة ، المطار فسيح ، متعدد الاتجاهات ، إذا حدث خطأ فى
باب واحد يتغير الاتجاه تماماً ، لابد من الانتباه بشدة إلى
الإلafات ، غير أننى فوجئت بمضيفة جميلة تقف رافعة لافتة
« ركاب ميونيخ » ، راحت تقودنا عبر المرات والمصاعد ،
استغرقت المسافة عشر دقائق ، جرى بينى وبينها حوار ما ،
لا أذكره الآن ، لا أذكر ملامحها ، لا أحافظ بقسمات المرضة التى
كانت تساعد الطبيب ، بالأمس ، منذ أربع وعشرين ساعة ، هل
جال عندي أى احتمال لما يجرى لى الآن ، ماذا سيكون عليه الأمر
غداً ؟

الإضاءة ، طلاء الجدران ، مساحات اللون الصارمة ، تستدعى
عندى واقعاً كافكاوياً ، كأننى أحد شخصه ، أمر بوصف متقن
صاغه من قبل ، أثناء انتظارنا فوجئت بشاب عربى الملامح ،
يصادفنى مبتسمأ

« لا تقلق ولا تحزن .. »

تطلعت إليه متسائلاً ، قال

« أنا كمال العайдى .. »

أديب تونسى موهوب ، يرسل نصوصه إلى أخبار الأدب ،
خلال الأسابيع الأخيرة تهافتنا مراراً ، كان المفروض أن نلتقي فى

الندوة ، بمجرد الإعلان عن اعتذارى لظروف صحية طارئة ، استفسر عن المستشفى الذى قصدته - حتى الآن لا أعرف اسمه ، لا أعرف اسم الطبيب - جاء على الفور ، آنسنى حضوره ، كأنى أعرفه منذ زمن ، كنت أنتظر وصول نصوصه بالفاكس أو الإنترن特 لأقرأها بمتعة قبل النشر .

« هل توقعت الظروف التى تعارفنا فيها ؟ »

لمس كتفى بمودة ، مشجعا ، سأله فجأة

« ماذا يعني التواء مجرى البول ؟ وكيف يعالج .. »

أجابنى محركاً أصابعه ، قال إن أطباء المساalk لديهم حلول لكافة المشاكل ، وذكر شيئاً عن قص جزء من المجرى وتقويمه ، كنت أسأل من لا يعرف مجرد النطق بما يشغلنى ، حاول مجدى التهويين من الأمر ، قال إن ما جرى لى يحدث لكثيرين ، وأن معالجته تتم ، ممكناً ..

أكثر من نصف ساعة مرت ، شعرت بوخذ فى مثانى ، قصدت دورة المياه ، أنزلت البنطلون والسروال ، لأول مرة منفرداً أتطلع إلى الوضع الذى لم أعهد ، بل لم يكن عندي أدنى فكرة عنه ، السلك لونه أسود يحيط بالأنبوب الخارج من الفتحة الدائرية ، ينتهى بذلك المحبس أو الصنبور الصغير المثبت بقطعة لاصقة ، يتدفق منه البول إلى المرحاض ، عندما قاربت النهاية شعرت بألم لم أعرفه من قبل داخلى ، بالضبط فى المثانة ، رفعت السروال بحذر ، على مهل ، لم أعتد ذلك الوضع بعد ، عندما خرجت إلى الصالة قال مجدى : لندخل إلى الطبيب ، ستمثل فى

ذاكرتى نظرته المتطلعة بفضول ورقة معاً ، أخبرته بتبولى ، سأله
عما إذا كان ممكناً لي أن أسافر غداً إلى برلين . أو من الأفضل
العودة إلى القاهرة ، قال إننى من الممكن أن أركب الطائرة ، أن
أمضى أسبوعاً بذلك القسطرة ، فقط .. يجب أن ألتزم الحذر .

كان مجدى متحمساً لسفرى إلى برلين ، لم يتبق إلا ساعات
قليلة على موعد إقلاعنا ، غداً سنغادر الفندق فى العاشرة بعد أن
أجرت كريستين تعديلاً فى المواعيد لتكون أفضل بالنسبة لنا
مقابل دفع مائة يورو - حوالى ثمانمائة وخمسين جنيهاً مصرياً -
للبطاقة الواحدة ، طلبت من مجدى أن يشرح الوضع للسيدة
كريستين لانج المسئولة فى ورشة برلين الأدبية والتى تستضيفنا
لمدة ستة أيام .. قال إن هذا طبيعى وأننى سأجد العناية هناك ،
كان بقائى فى ميونيخ مشكلة له ولمعهد جوتة ، كما أننى لا أعرف
مواعيد الطائرات إلى القاهرة ، أذكر أننى جئت إلى ميونخ فى
إبريل الماضى مباشرة على الطائرة المصرية يوم جمعة ، طائرة
واحدة فى الأسبوع ، لابد أن أدفع ثمن البطاقة ، أن أبقى حتى
يوم الجمعة القادم ، كيف ؟ ماذا سيجرى لي خلال هذا الأسبوع ،
ماذا عن دعوة لعمرو موسى أمين الجامعة العربية بحضور
معرض فرانكفورت ؟ . أما إذا سافرت على الخطوط الألمانية ،
فلا بد أن يتم ذلك عن طريق فرانكفورت ، هل سأجد مكاناً بسهولة
؟ ، فى برلين الوقت المقدر لنا خمسة أيام ، هذا يعني فرصة
للمضى إلى أخصائى فى المسالك يحدد الوضع . لم أكن مقتنعاً بما
ذكره مجدى عن استحالة العثور على متخصص فى نهاية
الأسبوع ، كان متوجلاً فى استدعاء طبيب الطوارئ الذى ألحق

بى إصابة لا أعرف مداها ، هذا الطبيب الذى قام بتركيب القسطرة ليس إلا طبيب طوارئ ، إنه مسئول فقط عن معالجة الحالة الحرجة وليس عن معالجة أسبابها ، ربما كان مجدى معدوراً ، الوضع كله مفاجئ ، مباغت .

ودعت مجدى وكمال ، دخلت إلى الغرفة ، أستعيد وضع الطبيب الذى أولانى ظهره ، وراح يحاول إدخال الأنبوب . ألم القطن المتناثر وما خلفه ، هنا أيضاً يخطئون ، بل إن خطأ التقدم يكون أفدح . أفرش فوق السرير فوطة أحضرتها من الحمام ، لاحظت بقع دماء على سروالى مصدرهما فتحة العضو ، وربما تلك الأسلامك فى بطنى ، لن يمكننى النوم كما اعتدت إلى جنبي الأيمن ، لابد من اتخاذ الوضع الذى كان يجلب لى حالة شلل النوم التى ولدت بها ، تماماً مثل الصداع النصفي ، لابد من النوم منذ الآن على الظهر تفادياً لأى خلل يلحق بذلك الأنبوب النافذ إلى مثانتى .

أجلس منفرداً إلى حافة السرير ، أفكر فى الاتصال بأحد المعرف فى برلين ، من ؟ ، من ياترى ؟ أمسك بمفكرة لونها أحمر ، دونت فيها أرقام أصدقاء فى عدد من الدول التى زرتها ، أفرد لكل منها عدة صفحات ، كنت أبحث عن اسم أحد المصريين الذين عرفتهم فى زيارتى السابقة ، لم أتوقف أمام أسماء الألمان . كنت أريد مصرياً يفهمنى على الفور ، أتصل به عبر مستويات عديدة . ليس من بينها اللغة فقط ، ولكن تلك المشاعر الخاصة المتصلة والتى لا يمكن لغيرنا أن يدركها ، لم أشأ أن أتصل خلال تلك المرحلة بالسفير المصرى محمد العرابى ، رغم أننى تعرفت عليه فى زياراتى السابقة ، ونشأ

بيننا ود متصل عبر الرسائل ، سأرجىء استعانتي به إذا تدهور وضعى ، إلى أى حد ؟ هذا مالم أكن قادراً على تحديده ، ربما حاشنى عن اللجوء به مس من ذلك الخجل ، ألا أسبب له إزعاجاً وسط مشاغله ، أتوقف أمام اسم دونته ..

وليد الشيخ

مراسل جريدة الأسبوع ، أتذكره جيداً ، أطلب الرقم من هاتفى المحمول الذى أضفت إليه خاصية التحوال والذى يربطنى الآن بالعالم ، لحسن الحظ أنه أجاب ، رحب بي عندما أخبرته باسمى .

« ممکن تسمعنى دقيقة واحدة .. »

« تفضل .. تفضل .. »

ذكرت له باختصار ما جرى ، طلبت منه أن يساعدنى فى الذهاب إلى طبيب متخصص فى المسالك البولية ، قلت إننى سوف أدفع تكاليف الكشف والعلاج ، لدى بطاقة ائتمان أستخدمها فى مثل هذه الطوارئ . إضافة إلى مبلغ ثلاثة يورو تقاضيتها صباح اليوم عن الندوة التى لم أحضرها .

أكدى لى وليد إن مأطلب س يتم ، وأنه سينتظرنى فى مطار تيجل ، قال إن كل شئ سيكون على أتم حال بإذن الله ، طمأننى صوته ، استلقيت على ظهرى فى الوضع الذى سألزمه طوال فترة بقاء هذا الأنوب مطلأ ، نصحنى الطبيب أن أشرب الماء بقدر استطاعتى ، لم أشرع فى الفرجة على التليفزيون ، أغمض عينى مستعيناً ماجرى عبر زوايا مختلفة ، مع مضى الوقت يتراكم رصيدى من الألم ، كنت جائعاً ، لم أتناول شيئاً منذ الظهيرة ، لكننى لم أفك فى تجاوز

الغرفة إلى الخارج بحثاً عما يمكن أن ينفي هذا الجوع ، حوالي الحادية عشرة تلقيت رسالة عبر الهاتف المحمول ، أجبتها بمثلها على الفور ، كنت أتمنى ألا تتصل بي هذه الليلة بالتحديد ، على بعد يصبح الصوت ملخصاً لأحوال الإنسان ، يبدو داخله عبر نبراته ، كنت أخشى أن تدرك شيئاً من أمري .

لا أدرى كيف غفت ، استيقظت خلال الليل مرتين ، ترددت خلالهما على دورة المياه ، متطلعاً بدهشة إلى تبولى عبر بطني ، منتظراً هذا الألم الغريب قرب الفراغ ، لم أكن وقتئذ أدرى مصدره .

في الصباح خرجت لتناول الإفطار ، التقيت بزميلتي رحلتى منصورة وزهرة ، كانتا تجلسان إلى إدوار الخراط وحسن حسنى ، استفسر إدوار عما جرى ، كنت مقتصداً في ذكر التفاصيل ، يدركنى الحرج عند ذكر أمور التبول والدم الذى يقطر من العضو ، حجبت هذا كله ، حاولت أن أبدو هادئاً حتى لا أزعج رفيقتي الرحلة ، سباقى إدوار وحسن ليلة أخرى ، ندوتهمما الليلة فى معهد جوته عن الإسكندرية .

في المطار ، عند اجتياز البوابة الإلكترونية صدر صفير حاد ، طلب مني رجل الأمن أن أرجع ، أن أخلع الحزام ، الحذاء ، أخيراً طلبت منه أن أنتحى به في غرفة التفتيش ، كشفت له عن بطني ، عن السلك المعدنى الذى يثبت الأنبوب ، بدا على وجهه تأثر ، قال بالإنجليزية إنه يتمنى لى صحة طيبة ، قبل دخولى إلى الطائرة تلقيت مكالمة من وليد الشيخ ، قال إنه تم تحديد موعد مع بروفيسور متخصص في مستشفى - لا أذكر اسمه - وإنه سيتظرنى في المطار ، سنتجه إلى المستشفى مباشرة قبل الفندق .

باريس

14 ديسمبر

الخامسة والربع بعد الظهر

هذا الرصيف الذى نمشى فوقه إلى المركز الثقافى المصرى الذى ترددت عليه مرات عديدة ، إما محاضراً أو زائراً . يقع فى مكان متميز . يطل على طريق السان ميشيل مباشرة ، قطعته مراراً سيراً على الأقدام ، المدخل المؤدى إلى صميم المحطة الواقعة على عمق كبير لا يمر به إلا خط واحد . للوصول إلى المحطة التى سننزل فيها لنركب حافلة تقلنا إلى المستشفى لابد من التغيير فى محطة شاتيليه شاسعة المساحة ، متعددة الاتجاهات والمستويات ، محطتان على درجة كبيرة من التعقيد خاصة للأجنبي الذى يمر بهما لأول مرة ، شاتيليه ومونبارناس ، أتجنبهما بقدر الإمكان لطول المسافة التى يستغرقها التغيير من خط إلى آخر ، وربما

لتفضيلي الحركة فوق الأرض عنها تحت الأرض ، مهما استغرقت
الحافلة من وقت فهناك فرصة للتأمل والفرجة على المدينة ، لكن
إذا كان الأمر مرتبطة بمواعيد عمل محددة مثل لقاء إعلامي . أو
موعد محاضرة فأفضل وسيلة هي خطوط المترو التي تنطلق بلا
عوائق مرور أو إشارات حمراء عند التقاطعات ، إنها المرة الأولى
التي أنزل فيها إلى تلك المحطة ، لا يوحى المدخل الضيق ، المحدود
بالمساحة والفراغات الموجودة تحت ، الحركة كثيفة ، الساعة
تقرب من الخامسة والنصف ، ذروة الحركة لأنصراف العاملين
في معظم المؤسسات عند ذلك التوقيت ، مرة صحبت صديقاً
لبنانياً ، كان يعمل في مكتبة ابن سينا ، أقدم المكتبات العربية في
باريس ، أحرص على زيارتها أكثر من مرة ، أجد فيها من الكتب
العربية ما لا أجد في مكتبات كبرى بالقاهرة وعواصم عربية
أخرى ، خاصة الكتب العربية المطبوعة في إيران ، نجح صاحبها
هاشم معاوية في تجميع الكتب الصادرة في المغرب والشرق
عنه ، تلك التي يصعب حركتها في الأقطار العربية نتيجة للحواجز
الجمركية والرقابية والربية الأمنية ضد الكتب . صاحبها هذا كان
يعمل بالمكتبة ، لكنه لم يكن مجرد بائع للكتب ، كان من أكثر الذين
عرفتهم في المكتبات العربية معرفة بالعناوين ودور النشر وعدد
الطبعات وما يميز كل منها عن الأخرى ، كما كان ملماً بالمخطوطات
وأرقامها وأماكن حفظها ، كثيراً ما رأيته يجلس إلى طلبة
الدراسات العليا في جامعة باريس الخامسة المواجهة للمكتبة أو
في الجامعات الأخرى يذكر لهم المصادر ، والمراجع ، بل يقترح

بعض الموضوعات للبحث ، كان وراقاً بحق ، لا يلم فقط بالعناوين ، إنما بالموضوعات التي تتضمنها الكتب والمخطوطات وله رأى و موقف فيها ، خلال أسفارى ارتبطت بعلاقات مماثلة مع أصحاب مكتبات وباعة في الإسكندرية ، في الدار البيضاء ، في تونس ، في دمشق ، حلب ، صنعاء ، مراكش ، فاس ، عمان ، دبي ، أبو ظبى ، عدن ، في كل مدينة أنزلها أقصد أقدم وأشهر مكتباتها ، وعندما أزورها أكثر من مرة تبدأ بيني وبين أصحابها أو العاملين فيها صلة ، لعل من أعمقها تلك التي قامت بيني وبين هاشم معاوية وصاحبى اللبناني هذا الذى يغيب اسمه عنى الآن ، مشينا ذات ليلة من المكتبة بعد أن أغلقها إلى هذه المحطة ، قال إنه يسكن في إحدى الضواحي ، وأنه يحتاج إلى مسافة زمنية قدرها خمس وعشرين دقيقة فقط . ربما كان نزوله ذلك النفق الذى ولجه منذ دقائق آخر مرة رأيته فيها ، في زياراتى التالية لم أجده في المكتبة ، لا أدرى إلى أين ؟ ، ربما يقع بيته على هذا الطريق الذى سأمر به ، الرصيف مزدحم ، رصيف عريض ، ومحطة أكبر من محطات مترو باريس العادية ، لا تمر الوجوه الغاربة بالذاكرة فقط ولكن الحاضرة حولى . في محطات الانتقال من مكان إلى آخر ، تبدو الملامح مستوفزة مهما بدا من تمهل أصحابها بالنظر إلى الفراغ أو قراءة صحف أو حتى الحديث إلى آخر عند وجود الصحبة ، رغم التقارب الشديد لا يعرف أحد شيئاً عن الآخر ، ربما يلفت أنظار بعضهم تكرار ملامح معينة نتيجة قرب الجوار ، قد تنشأ صلات بالنظر ، وربما تتحقق على الإطلاق ، خلال

السنوات التي أقمت في ضاحية حلوان ، كنت أركب المترو يومياً ، خاصة في السنوات الأولى بعد زواجي مباشرة عام خمسة وسبعين ، قبل أن تخصص دار أخبار اليوم حافلة لتوصيل العاملين إلى حلوان ومدينة مايو ، أستعيد علاقات الملامح ببعضها البعض ، الصلات بالنظر ، التحديد المتبادل بين من لا يعرفون بعضهم ، والذي تتصل من خلاله دلائل الحب أو الكراهية أو التحديق كذلك التماهى الذي لا يستمر إلا مقدار الطريق . في المترو القاهري تعلو الأصوات أحياناً بالتعليقات وربما أحاديث خاصة جداً ، ما زلت أذكر بكاء أكثر من سيدة أو رجل لكرب ما . يتدخل الركاب مع المكلوم ، ترتفع عبارات التشجيع وربما تبدى آراء ما في مشكلة فضفض بها صاحبها أو قص بعضاً من ملامحها . ربما يرتفع صوت زوج وزوجته بالشجار ، عندئذ يتدخل أولاد الحلال ، يحاول كل من الطرفين استمالة أولئك المجهولين له بإعلان أسباب أو رواية ما جرى ، تقترح حلول ، وقد ترتفع ملامة ، أو يجري تهدئة خاطر ، ينتهي هذا كله مع الوصول إلى المحطة . في المترو الباريسي ينفرد كل بنفسه ، يجلس الناس متواجهين ، لكن بصر كل منهم لا يتقاطع مع الآخر ، القراءة ملمح مشترك بين كثيرين ، ما من تواصل إلا في حالة العشق . أحياناً يلتحم الطرفان في قبلة عميقه أو تبادلات لمس الخدود والإمساك بالأيدي ، مما بقى في ذاكرتي سيدة عجوز ، بالتأكيد عبرت السبعين ، غير أن عينيها تفيضان رغبة وحيوية . في ذروة تلاؤهما ، كانت بصحة شاب في العشرينات ، كان عناقهما وعراً ،

ساختنا ، إلى درجة خيل إلى معها أنهم بصدده الإقدام ! ربما لم يكن يتطلع إليهما سوائى ، حتى نظرى إليهما كان خلسة ، لو أطلت ، لو حدقت فإننى أخالف العادة ، أبدو غريباً فى مقام المخالف للكل .

لم نجلس ، ظللنا واقفين ، إنها أقصى درجات الزحام . لا يصل الأمر إلى حد الالتصاق التام كما يحدث فى المترو القاهرى وقت الذروة ، هنا تظل ثمة مسافة ، ربما تكون ضئيلة ، غير ملحوظة ، لكن تبقى مسافة فاصلة . عبرنا محطة السان ميشيل ، التالية شاتيليه ، لم أعرف بالضبط من أى رصيف سنركب ، لم أستخدم الإر إر إلا نادراً . نفارق العربة .

« يمكن أن نسأل يا ماجدة عن المحطة .. »

أفأجأ بمن يسألنى بالعربية

« إلى أين تذهبان ؟ »

إما أنه جزائى أو تونسى ، شاب فى العقد الثالث ربما ، يبدو راغباً فى المعاونة ، لابد أن اللهجة المصرية استرعت انتباهه ، طبعاً اللغة العربية ، وربما مظاريف الأشعة كبيرة الحجم ، يمثل أمامى الإماراتى وزوجته فى ميونيخ ، ذلك اليوم البارد المولى ، ترى أين هما الآن ؟ أراني و Mage دعى بعينى هذا الشاب ، ربما يبدو فى هيئة ما يثير التعاطف ، هذا مقلق ، ما يثير التعاطف عند هذا قد يكون دافعاً للتحرش عند آخر ، الغريب ضعيف مهما كان ، رغم حرصى أن أبدو عادياً ، إلف للمكان والآخرين ، إلا أن التعرف على غربتى سهل .

«اتجاه جيرسى سانت كريستوف ، محطة جيرسى
برفكتوار ..»

يشير إلى اللافتة المعلقة .

● ستنتظران هنا ، الرصيف نفسه ، أسماء المحطات مكتوبة هنا ، عندما يضيء اسم جيرسى برفكتوار يعني هذا أن القطار القادم يقصدها .. آه .. إنها مضاءة .. اركبا القطار القادم .. »

● شكرأ يا أخي .. »

أنطقها من العمق ، ليس على سبيل المجاملة ، تبدو رغبته الصادقة في المعاونة ، بعد دقيقتين تتدفق عربات المترو إلى الرصيف ، التقاطر أسرع في هذه الفترة ، تقصير الفواصل الزمنية لاستيعاب الكثافة .

أطلع إلى خريطة المحطات فوق الباب ، أخرى في الاتجاه المقابل ، أقرأ آخر محطة ، إنها اسم الاتجاه .

«جيرسى سانت كريستوف ..»

أنتقل بالبصر من محطة إلى أخرى ،

«بالضبط .. ها هي جيرسى برفكتوار ..»

أعد المحطات المتبقية ، أربع ، عشر ، يخلو مقعدان متجاوران ، لا يتوجه الواقفون إليهما بسرعة ، كثيرون يفضلون الوقوف ، إذا لمح أحدهم عجوزاً أو معاقةً يقوم على الفور ، كانت هذه التقاليد حية ، سارية لدينا في الخمسينيات وحتى السبعينيات ، الآن يحملق

الشاب صغير السن فى عين الكهل المتوكىء على عصا أو بادى
التعب ولا يشرع فى الدعوة حتى ، نجلس متحاورين .

الأوبرا ..

الميدان الشهير فوقنا ، لم أزره ولم أعبره هذه المرة ، مكان
مفضل عندي ، حميم الباريسية ، كلما جلست بمقهى السلام
(كافيه د لابيه) تذكرت سطوراً لا أدرى أين قرأتها عن باشوات
مصر ، خاصة من الوفد ، كان المقهى مكانهم المفضل .

ديفانس .

خرج المترو إلى ظهر الأرض ، انتهى الجزء المغطى ، يمضي
الآن فوق كأى قطار عادى . الديفانس خارج نطاق مدينة باريس
الإدارى ، لكنها عملياً امتداد لها ، عمارات نيويوركية التصميم
والانطلاق إلى أعلى ، أكثر حداثة ، قوس نصر ضخم ، تجريدى
الخطوط يتناصى مع قوس النصر التاريخى الذى شيده نابليون
فى ميدان النجمة قلب باريس ، تناص مضاد ، تناصى النقيض .

بخروج المترو إلى سطح الأرض تبدأ الضواحي ، الضواحي ؟
كلمة تثير عندي بعد السقيق ، خارج المألف لى ، عند نقطة
ما فى هذا الاتجاه ، فى هذا الليل ، خلال هذا الضباب ، داخل
مبنى المستشفى يتوقع صديقى الدكتور خليل وصولنا ، وها نحن
نسعى ، المسافات بين المحطات أبعد من تلك الواقعه داخل المدينة ،
الوقت معنا وأكاد أثق أننا سنصل فى الموعد .

برلين

الثاني من أكتوبر

مطار تيجل ، أعرفه ، نزلت فيه من قبل ، صغير ، كان بوابة برلين الغربية إلى العالم قبل انهيار السور وتوحيد ألمانيا ، في برلين الآن ثلاثة مطارات ويخططون لبناء مطار كبير ، ربما يفوق فرانكفورت مساحة وصخباً .

وليد الشقيق ينتظرنى أمام بوابة الخروج ، أيضاً مرافقنا إلى الفندق ، شاب لطيف أصله تشيكي ، اصطحب صديقه معه ، يقود ميكروباص ، ابتسامته ودودة ، حريص على المعاونة ، أبدى تأثراً عندما علم بما جرى ، اقترح وليد أن نذهب أولاً إلى المستشفى ، ثم يكمل بصحبة منصورة وزهرة إلى فندق جورين الذى نزلت به من قبل ، يقع فى شمال المدينة ، يبدو المكان مثل

الضواحي ، بيوت متباعدة تحيطها حدائق ، طريق جانبي يؤدى إلى بوابة تبدو من خلالها مبان حديثة ، لا أعرف اسم المستشفى حتى الآن ، قال مرافقنا التشيكي إنه سيعود إلينا . اتفقنا ، بعد ساعة من الآن ، تقدمي وليد إلى الصالة الرئيسية ، كان يستفسر عن القسم الذى نقصده استطعت أن أميز كلمة « أورلوجى » تعنى « البولية » أى المسالك البولية ، أهتدى أخيراً إلى مكان التخصص، اللون الأعم فى المكان الأبيض ، تخلله مساحات لونية من تشكيلات هندسية أو دائرية متداخلة ، تصميمات مختلفة لكنها من إبداع فنان واحد ، تذكرت القاعة الرئيسية فى المبنى المخصص لجراحة القلب بمستشفى كليفلاند بالولايات المتحدة ، منها تبدأ رحلة الفحوص المتعددة التى تسبق العملية ، كانت الجدران مزينة بلوحات ضخمة إما مرسومة مباشرة عليها أو معلقة إليها . بينما تنتشر أصص الزهور ، ونباتات الظل ، إنه الإيحاء بمضمون مغایر لما يعنيه المكان ، وراء تلك الجدران معامل التحليل ، وأجهزة القياس ، وغرف العمليات .

لم يكن أحد فى مدخل القسم ، تحدث وليد عبر مكبر صوت صغير إلى شخص ما لا يبدو لى . فى مكان ما بالداخل ، بعد أن انتهى التفت إلى قائلاً :

« دقة وسيصل الطبيب ... » .

من الداخل جاءت طبيبة شرقية الملامع ، عندما صافحتها أبديت الملاحظة ، قالت إنها إيرانية الأصل ، اسمها أفسار

سلیمانی، كما حدث في كليفلاند عندما التقى بطبیبی المعالج مهدی رزافی قبل وبعد الجراحة . تحدثت إليه عن أصفهان التي ولد بها . عن حافظ وسعدي ، عن عمر الخيام ، عن سجاد قم وكرمان ، ابتسمت قائلة : « تعرف الكثير عن إيران ... » .

قلت إن الثقافة الإيرانية جزء من تكويني ، خاصة أنني دارس لفن السجاد وأتقن تصميم الفارسي منه بالتحديد ، وبالأخص سجاد بخاری الذي أتقن أنواعه وطرق نسجه وأهيم باللون الياقوتي الغالب عليه ، حدثها عن الموسيقى الإيرانية التي أكتب عنها ، عن صوت حميرا وما هاستي ، عن محمد رضا شا جريان ، أبدت سروراً متحفظاً ، كنت أسعى إلى تواصل إنساني لتسوّع ما حل بي و تعالجه ، طلبت مني التمدد على السرير المفروش بورق يشبه ورق المزادات التي تلقى بمجرد الاستعمال ، كشفت عن نصفى الأسفل ، تطلعت بالنظر إلى الأنوب الخارج من بطني ، مالت قليلاً ، قالت إن القسطرة مركبة بشكل جيد ، وأنني يمكن أن أمارس نشاطي مع الحذر ، وعدم التجاوز في بذل المجهود ، قالت إذا شعرت بانسداد القسطرة ينبغي أن أطلب الإسعاف فوراً .

« وهل تنسد ؟ » .

إنها المرة الأولى التي أعرف فيها ذلك ، كنت أظن أن ثمة إجراء سيتّخذ ، قالت إنني يمكن العودة بعد ثلاثة أيام للكشف عن وضع القسطرة ، سألتها عن التوقيت الذي ستزال فيه ، الذي سأقف فيه

وأتبول كما كنت حتى عصر أمس ، كما ظللت طوال عمرى منذ أن ولدت ، قالت شيئاً ما لوليد لم أعرفه ، وعندما سأله كرر ما ذكرته عن عودتى بعد ثلاثة أيام ، وقفت متظراً ، هل سيظهر الأستاذ ذو الاسم يونانى الإيقاع ؟ يمر الوقت ، طلبت من وليد أن يسألها أجابت بأنه مشغول مع مريض فى الداخل ، إذن .. لن ألتقي به ، الغرض من وجودى انتهى ، تبدو الطبيبة إيرانية الأصل رقيقة الابتسامة لكنها تتحرك بحيادية وهدوء ، لا يلوح أى إجراء ، إذن .. الموضوع أعقد مما أتصور ، لا يبدو أن حديثى عن حافظ وسعدى ومولانا قد ترك لديها أثراً ، علمتني التجربة أن الصلة بين الطبيب والمريض حيوية وضرورية ، لذلك سعيت إلى بناء علاقات حقيقية مع أولئك الذين يتبعون أمري ، لم أستقر على طبيب القلب مثلاً إلا بعد جولة طويلة التقيت خلالها بمشاهير مشهود لهم بالعلم والكفاءة . لكن لم تقم بیننا وبينهم وشیجة ، اقتضى الأمر وقتاً حتى ركنت إلى عالم جليل ، إنسان رقيق ، يخفى رقته وراء مظهر يبدو صارماً للبعض غير أننى لم أعرف إنسان في رقة الدكتور جلال السعيد ، هل يمكن أن تمت صلة إنسانية في لحظات عابرة ؟ ، نعم .. ولكن ليس في كل الأحوال .

على أى حال إقامتى فى برلين ممتدة إلى صباح الخميس ، خمسة أيام كاملة ، لا يوجد إلا ارتباط واحد قدره ساعتان مساء الاثنين فى الورشة الأدبية ، ما عدا ذلك وقت حر ، يمكننى العودة صباح الثلاثاء ، ألم تقل بعد حوالى ثلاثة أيام ، أخرج بصحبة وليد إلى الطريق الرئيسي ، العربات تمرق بسرعة ، المارة قلائل ،

تُوحى المنطقة بالبعد القصى ، تحدثنا عن مصر . عن الجالية فى برلين ، ما يجرى فى فلسطين ، فى العراق . يحصل مرافقنا التشيكي ، صاحبته تجلس فى المعد الخلفى ، استفسر عما يجرى، حکى له وليد بينما أتابع الطريق ، قلقاً على وضع القسطرة ، راجياً ألا تنسد .

رغم زيارتى برلين عدة مرات منذ نهاية الثمانينات إلا أننى فى كل مرة يخیل إلى أننى أنزل مدينة مغایرة ، لم أستوعبها بعد ، لم أمسك بروحها الخفية . ربما لأننى فى كل زيارة لزمن مكاناً بعيته ، لم أتحرك إلا من خلاه . بمعنى أننى أنطلق منه إلى متحف أو قاعة محاضرات أو مقر مؤسسة ثقافية ثم أعود على الفور . مرتان أقامت بمقر إقامة الكتاب ، قصر قديم يطل على بحيرة جميلة ، على مقرية قبر لشاعر مات منتحراً ، رغم أن المقر يقع بالمدينة التى أسعى فيها الآن ، لكن يخیل إلى أنه فى مدينة أخرى ، لا تواتىنى أى رغبة فى المضى إلى مكان مررت به من قبل وأمضيت فيه بعضاً من وقتى ، مع أننى أسعى فى مدن أخرى إلى مقاه وفنادق نائية لأتأمل مدخلاً أو شرفة أو ركناً مررت به يوماً ، الآن .. ما أرغب فيه الانزواء فى الفندق ، منذ الأمس وأنا أقف على الحافة . ماذا سيجرى غداً ؟ الساعة التالية ؟ بل .. بعد لحظة ؟ هذا حال لا سابقة له عندي . لا يشبه الأيام التى سبقت العملية فى قلبي ، ولا تلك التى تلتها . ماذا سيجرى مع هذا الوضع الاستثنائي ، الغريب على ؟ لا يمكن التوقع ولا حتى التخمين .

فى الطريق توقفنا عند بقال تركى ، اشتريت منه ست زجاجات

مياه ، عصير جوافة ، عندما قرأت الملصق بها فوجئت أن البلد المنتج مصر . لكنها زجاجات ذات حجم لم أعرفه في مصر ، قبضت على الزجاجة بقوة وحنو معاً ، تلك الأشياء ، تلك اللحظات في البعد ، عند عودتي من الولايات المتحدة بعد إجراء العملية الجراحية كدت أقبل الطائرة ، طائرة مصر للطيران لحظة اجتيازى بابها ، ربما أراها رابضة فوق المدرج في القاهرة فلا تحرك عندي شيئاً ، بل إننى رأيت تلك الطائرة بالتحديد مراراً فيما تلى ذلك . كل يوماترا اسمها ، ولكن الظرف الاستثنائي يضفى على العادى ما يدفع به إلى غير العادى .

أكدت الطبيبة الإيرانية على ما ذكره طبيب الطوارئ في ميونيخ ، أن أشرب الماء باستمرار . على الأقل ثلاثة لترات يومياً . هكذا وصلت إلى الفندق . اجتازت مدخله أسحب حقيبة سفرى وأحمل زجاجات المياه والعصير ، ثمن زجاجة الماء الصغيرة طبقاً لأسعار الفندق توازى سعر زجاجتين كبيرتين من البقال ، ابتسمت موظفة الاستقبال ، قالت إنها تتذكرنى ، لكنها لم تكن تلك الفوارقة بالحيوية ، رائعة العمارة والتكونين ، شرقية الملامح ، ربما أراها غداً . يقع فندق جورين في شرق برلين ، شارع هادئ يخلو من أي مبنى له ملمح مميز ، هكذا كانت المباني في برلين الشرقية باستثناء المنشآت الضخمة التي نجت من القصف والقريبة من مركز المدينة الشرقي زمن ما قبل انهيار السور . أى حول ميدان الكساندر بلاط ، الكاتدرائية ، مكتبة الدولة ، المكتبة الشرقية ، كذلك المباني التي نجت من قصف الحلفاء ، عمارات

قليلة مبنية بداية القرن الماضي ، بعد توحيد المدينة جرى طلاء مباني القسم الشرقي الذى كان يغلب عليها اللون الرمادى ، رأيت برلين الشرقية عام سبعة وثمانين عندما استضافتني جامعة هالة، ثم أقامت فى عاصمة ألمانيا الديموقراطية وقتئذ لمدة أسبوع بدعوة من اتحاد الكتاب ، لم أطلب زيارة برلين الغربية ربما بتأثير نصيحة سمعتها من صديق شيوعى ، قال لى إن ذلك يثير حساسية عند الشرقيين ، وربما رغبة منى فى أن أرى الحالة جيداً. فقد وقفت على نذر النهاية الوشيكه وقتئذ ، كان الحلم المشترك لكل من قابلتهم هو السفر ، كان السفر ممنوعاً إلا بعد بلوغ الخامسة والستين ، أى بعد أن يفقد الإنسان الرغبة فى الترحال ، لا أدرى ، هل كان فندق جورين فندقاً وقتئذ أم بناية عادية ؟ الواجهة طلاؤها حديث ، عادية ، لكن ما ألفنى إليه حديقة داخلية صغيرة المساحة . غير أن أشجارها عتيقة ، راسخة ، تطال بفروعها وأطرافها الطابق الثالث ، طلبت الإقامة فى غرفة تطل على الحديقة، فوجئت بها تقدم إلى مفتاح الغرفة رقم سبعة عشر ، الحجرة عينها التى أقامت فى أبريل الماضى ، بالتأكيد لا تعلم ، أشك أنها تذكرنى ، ربما قالت ذلك على سبيل المجاملة ، قال التشيكى إننى لو احتجت إليه فى أى وقت سيلبى ، كتبت رقم هاتفه المحمول . كانت صديقته تتطلع إلى بصمت وتعاطف ، لا أدرى لماذا حرص على أن يذكر يهوديتها ، لا يعنينى الأمر ، فى أسفارى لا أسأل الغرباء الذين أتعرف إليهم عن عقائدهم ، أرقام وليد الشيخ مكتوبة معى ، لم أستفسر عن أرقام غرفتى منصورة

وزهرة ، أوثر أن يتحركا بمفردهما ، لا أريد أن أشعرهما بأى اضطراب أو تحميلاهما عبئاً ، ولا حتى عبء التطلع والاستفسار ، كنت راغباً في التوارى ، ليس عنهمما فقط ، بل عن سائر من أعرف ، باستثناء الصحب الذين يمكننى الاستفادة بهم وطلب العون ، لو أننى فى مصر لاختفى الأمر ، الغريب أضعف فى اغترابه فما البال إذا فاجأته علة لم يعد لها ولم يتأنب .

بدأت ترتيب وضعى كما اعتدت عند وصولى ، مهما قصرت إقامتى ، حتى لو ليلة واحدة فإننى أبذل الجهد لأقيم صلة بالوضع . هكذا .. الكتب إلى يمينى ، الهاتف إلى الناحية الأخرى ، صورة نبدو فيها نحن الأربعة عند مدخل الجسر الصغير المؤدى إلى العوامة فرح بوت التى نلتقي فيها كل أسبوع مع نجيب محفوظ ، القمصان فوق الرف ، الملابس الداخلية ، ما يقلقنى بقע الدم ، هذا يعني الغسيل أولأ بأول ، إذا لزم الأمر سأشترى ملابس أخرى ، فكرت فى تناولى الطعام ، الإفطار فى الفندق ، لكن المطعم لا يقدم غذاء أو عشاء ، أقرب مطعم فى البناء المجاورة . فى المرة السابقة قيل لى إنه إيطالى ، لكنه عادى جداً ، أقرب إلى مطاعم الوجبات السريعة ، المطاعم الجيدة ، المتنوعة بجوار المبنى العتيق الذى كان مصنعاً للبيرة ، ثم تحول إلى مركز ثقافى يموج بالحركة ، الورشة الأدبية تحتل أحد أجزاءه ، متعة الطعام عندي جزء من الرحلة ، أفضل ما لا أعرفه . ما لم أتذوق مثله ، ما لا يتوفى مثله فى القاهرة ، لكننى منذ الأمس لا يعنى الطعام بالنسبة لى إلا سد الرمق ، لا أريد الوصول إلى لحظة

الشعور بالجوع ، في نفس الوقت أعرف أن الوهن قد يؤدي إلى تدهور حالى ، إلى الإسراع بما لا أعرفه ، رغم أننى لم أتناول غذائى الـيـوم إلا أننى لم أكن راغبـاً فى الأكل ، أـسـندـتـ ظـهـرـىـ إلى الوـسـادـتـينـ ، وـضـعـتـهـماـ فـوـقـ بـعـضـهـماـ ، أـتـطـلـعـ إـلـىـ الشـجـرـةـ التـىـ تـتـجـاـوـزـ الطـابـقـ الـأـوـلـ إـلـىـ أـعـلـىـ ، تـمـامـاـ كـمـاـ كـنـتـ فـيـ أـبـرـيلـ الـمـاضـىـ ، لـكـنـ شـتـانـ مـاـ بـيـنـ الـحـالـيـنـ . بـجـوارـ الـكـتـبـ ، الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ ، الـجـزـءـ الـأـوـلـ مـنـ الـبـحـثـ عـنـ الـزـمـنـ الـضـائـعـ ، خـمـسـةـ دـوـاـوـينـ لـفـؤـادـ حـدـادـ فـيـ مـجـلـدـ وـاحـدـ ، كـتـابـ عـنـ بـدـاـيـةـ الـزـمـنـ ، هـذـاـ مـاـ صـحـبـتـهـ مـعـىـ ، دـائـمـاـ أـخـشـىـ أـنـ أـفـرـغـ مـنـ قـرـاءـةـ مـاـ صـحـبـتـهـ مـعـىـ ، أـصـلـ إـلـىـ لـحـظـةـ لـاـ يـكـونـ مـعـىـ مـاـ أـقـرـؤـهـ ، قـرـأـتـ الـبـحـثـ عـنـ الـزـمـنـ الـضـائـعـ مـنـ قـبـلـ ، لـكـنـ بـعـدـ ظـهـورـ الـمـجـلـدـ الـسـادـسـ قـرـرـتـ أـنـ أـبـدـأـ قـرـاءـتـهـ لـلـمـرـةـ الـثـانـيـةـ ، لـمـ يـتـبـقـ إـلـاـ جـزـءـ وـاحـدـ وـتـتـمـ تـرـجـمـتـهـ إـلـىـ الـعـرـبـيـةـ ، غـيـرـ أـنـ إـعـادـةـ الـقـرـاءـةـ مـرـتـبـطـةـ بـهـدـفـ أـعـمـ بـدـأـتـهـ مـنـذـ حـوـالـىـ عـامـ ، هـوـ أـنـ أـعـيـدـ قـرـاءـةـ الـرـوـاـيـاتـ الـعـظـمـىـ التـىـ تـعـلـقـتـ بـهـاـ ، بـدـأـتـ بـ «ـ بـدـونـ كـيـشـوتـ »ـ بـعـدـ ظـهـورـ تـرـجـمـةـ جـدـيـدـةـ أـنـجـزـهـاـ الـدـكـتـورـ سـلـيـمـانـ الـعـطـارـ ، قـرـأـتـ خـلـالـ الـأـرـبـعـينـ سـنـةـ الـمـاضـيـةـ تـرـجـمـتـيـنـ ، الـأـوـلـىـ لـلـدـكـتـورـ عـبـدـالـرـحـمـنـ بـدـوـىـ ، وـالـأـخـرـىـ لـلـدـكـتـورـ عـبـدـ الـعـزـيزـ الـأـهـوـانـىـ ، وـلـمـ يـصـدـرـ إـلـاـ نـصـفـهـاـ فـقـطـ فـيـ جـزـئـيـنـ ، سـمـعـتـ مـنـ يـقـولـ إـنـ النـاـشـرـ خـشـىـ إـتـامـهـاـ لـاـ تـضـمـنـتـ مـنـ تـعـرـضـ لـنـبـىـ الـإـسـلـامـ ، خـاصـةـ أـنـهـ مـسـيـحـىـ ، قـرـأـتـ أـيـضـاـ أـعـمـالـ كـافـكـاـ فـيـ تـرـجـمـةـ جـدـيـدـةـ قـامـ بـهـاـ السـوـرـىـ إـبـرـاهـيمـ وـطـفـىـ وـأـرـفـقـ النـصـوصـ بـدـرـاسـاتـ وـاـفـيـةـ ، حـدـيـثـةـ ، وـأـتـمـنـىـ أـنـ يـتـمـ مـشـرـوـعـهـ بـعـدـ أـنـ صـدـرـ مـنـهـ مـجـلـدـانـ ،

فى الخطة « جسر على نهر درينا » لانيو اندریتش ، و « يوميات منزل الموتى » لدستيوفسکى ، بعض قصص وروايات تشيخوف القصيرة ، أرض البشر لسانت اكسوبى ، صحراء التمار الدينوبوتزاتى ، ثلاثة نجيب محفوظ .

بالطبع أقرأ باستمرار فى الأعمال الكبرى التى ارتبطت بها مثل ألف ليلة وليلة ، الفتوحات المكية ، مصادر وحوليات التاريخ المصرى ، فى مقدمتها « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » لابن إياس ، خلال السنوات الماضية مع اقترابى من الستين أوى ضيق الوقت ، أيضاً وهن الإمكانية . أحار بين ما يجب أن أطلع عليه من نتاج جديد مؤلف بالعربية أو مترجم وبين تلك النصوص التى ارتبطت بها وأستند إليها وأفضل استعادتها من فترة إلى أخرى .

فى الغرفة الهدئة ، المعقة بالصمت والوحدة ، أستعيد أقسام مكتبى ، خلوتى بكتبى نهار كل جمعة ، أنفض عنها الغبار ، أعيد ترتيبها ، أثناء ذلك أكتشف عناوين نسيت اقتنائى لها . أو نصوصاً ممضى عليها زمن لم أقرأها ، لم أتصفحها ، يمكننى أن أمضى أياماً متصلة فى مكتبى ، لا أخرج ، لا تحتوى الكتب والمخطوطات فقط ، إنما مئات الساعات من التسجيلات الموسيقية التى جمعتها خلال أسفارى عبر العقود الأربع الماضية ، ما من مكان الآن أتصالح فيه مع نفسى مثل هذه المكتبة ، الأصدقاء الأقربون أتواصل معهم بالهاتف ، تطول أحياناً أحاديثنا ، أصبحت بديلاً للقاءاتنا التى باتت نادرة لصعوبة الحركة فى المدينة ولكثره المشاغل وشدة الانطواء .

ماذا جاء بي؟

ألم أكتف من السفر؟ ألم أرحل بما فيه الكفاية؟ أم أن أسفاري تلك جزء من رحيلي العام، في قراءته للدفتر الرابع من دفاتر التدوين، قال صديقي الدكتور محمد عبد المطلب إن الغيطاني لا يكف عن الترحال، عن السفر، هذا صحيح، ومهما تحدثت عن رغبتي في المكث فإني ما زلت أقدم على السفر وإن كنت أرصد بعض التغيير خلال العقد الأخير على الأقل، فلم أعد أستجيب لأى دعوة أتسلّمها، إما بلد يضيف إلى معارفي، خاصة إذا لم أكن نزلته من قبل، أو بلد سأقضى فيه أمراً يتعلق بعملي، أو بلد تربطني به ذكريات حميمة، ولا ينطبق هذا إلا على باريس خاصة وفرنسا عامة، لم أعد أمضى الأوقات الطويلة في التجوال، في السير لمدة ساعات كما كنت أفعل خلال السبعينات والثمانينات، أصبحت الآن أركن إلى موضع معين، ربما مقهى ما، أو ركن في متحف، أو حديقة، أطيل الاغتراب داخلي، لا أضيق بالأماكن المغلقة، عرفت الحبس القسرى المنفرد مبكراً، كنت في الثانية والعشرين، أمضيت أربعين يوماً في زنزانة عتيقة بسجن القلعة، مارست خلالها السفر داخل الذات، استعادة ما انقضى مع قلة الرصيد وقلة مقارنة بالآن، ذات صباح ضبطت نفسى مستمتعاً بالعزلة رغم وجود خطر استدعائى في أى وقت للتحقيق مع ما يصاحب ذلك من تغمية عينين وصفع وركل وأمور أخرى! غير أن الخطر الذى كنت مهدداً به في القلعة كان قادماً من الخارج، أما ما أمر به الآن فيصدر مني، من داخلي. لا يمكننى النظر إلى

أطراف الشجرة بعيني أبريل الماضي أو استيعاب الضوء الناعم
القادم من الزمن الخريفي عبر النافذة ، الزجاج والستائر الخفيفة
المسللة عليها ، لا أعرف ماذا سيحدث بعد لحظة ، بعد ساعة ، هذا
أشد ما أرقني في تلك الحالة التي لم أعرفها من قبل .

يمضي الوقت لا أفارق مكانى ، متخذًا الوضع نفسه ، أقرأ فيما
لا أراه ، ما لا يمثل أمامي ، لا أشرع في تقليب صفحات كتاب
حتى ، يصعب التركيز ، الاندماج مع نص مكتوب ، أما حالة
القراءة بالعينين فقط دون الاستيعاب فيما يؤذيني ، لم أفارق
السرير إلا للتبول ، أتوقع الآن تلك الحزة التي تسبق النهاية ،
قرب تمام الإفراج ، أشد ما يقلقني تلك الآلام المستجدة ، التي
لا تستدعي مثلاً من الذاكرة . ما استجد على وضعى أننى
لاحظت سرسبة البول من الفتحة الصغيرة التي ينفذ منها الأنبوب
إلى داخل المثانة ، يحدث ذلك إذا حزقت قليلاً ، لاحظت أيضاً نزول
بعض قطرات من فتحة العضو ، في الحقيقة التبس علىّ ، لم أدر ،
أهو انحدارها من فتحة البطن أم أنه خروج من الوضع الطبيعي ،
دققت الأمر من خلال النظر عبر أوضاع بلغ فيها ميلى درجة لم
أعرفها من قبل أو النظر إلى المرأة المقابلة ، كان خروج تلك
ال قطرات القليلة من فتحة العضو يعني لى أن المجرى الداخلى لم
يصب أو أنه لم يصب بشدة ، أم أنه الالتواء الذى تحدث عنه
طبيب الطوارئ يسمح بتسرب بعض قطرات . طفى اهتمامى
هذا على أسى لرؤيتى خروج البول من بطنى ، ما بين التمدد على
الفراش ، والنظر إلى جهاز التليفزيون الذى توجد به قنوات ألمانية

فقط ، والتردد على دورة المياه ، والنوم المتقطع . انقضت ليلى الأولى في برلين ، حوالي العاشرة اتصلت ابنتي من القاهرة ، تصورت أنني نجحت في التمويه عليها ، أن أبدو طبيعياً ، مرحًا ، فوجئت بها تسألني .

« صوتك ماله يا بابا .. » .

على الفور .. أبداً .. ربما لأنني لم أنم جيداً .. لكنى بعد انتهاء الاتصال خيل إلى أن عندها بعض شك ، قررت أن أبادرها صباح الغد ، وأن أحاول المرح .

صباح الأحد ، بعد الإفطار جلست في الحديقة الصغيرة ، غير أنها لم تكن الحديقة التي عرفتها في أبريل الماضي . كنت غير قادر على التركيز ، تذكرت وروداً حمراء دقيقة التكوين ، لا أعرف اسمها ، كل وردة تشبه زهرة اللوتس ، تتصل بالورود الأخرى عبر خيط نحيل من النبات ، كانت تنمو على حافة الأفريز الحجري الذي يفصل بين المطعم والحدائق ، لم يكن لها وجود الآن ، إنه الخريف ، الحدود بين الفصول واضحة هنا ، في مصر تهب رياح الخمسين الحملة بالرمال الناعمة في ذروة الربيع ، أما المناخ الربيعي الحقيقي فيحل في الخريف ، خلال السنوات الأخيرة تتأخر الرياح الناعمة ، وتلك السحب الخفيفة التي تعبر سماء المدينة ملونة بأشعة الشمس الشفقية ، يمتد الصيف حتى نوفمبر ، أذكر أنني كنت أسافر إلى الجبهة مرتديةً معطفاً من الصوف لأن الليالي كانت باردة . كان ذلك عام ثلاثة وسبعين ، أمور كثيرة

منذ ذلك الحين جرت ، تبدلت بما فيها المناخ .

جاء ناجى فى العاشرة والنصف بصحبة مراسل محطة DW الدوتش فايلز ، قبل سفرى اتصل بي فى القاهرة ، قال إن صديقه يعمل فى هذه المحطة وأنه يرغب فى إجراء لقاء معى ، سئلتى فى برلين ، أما الحوار التليفزيونى فسيتم فى المعرض .

ناجى يشبه أبناء البلد الصميمين ، ليس فى تكوينه فقط ، إنما فى طريقة نطقه والتعبير عن نفسه ، أصفى إلى ما جرى لي . أبدى عتابه لأننى لم أتصل به . أشار إلى هاتفه المحمول . قال إن أكثر من عشرين اسمًا لأطباء معروفين ، أصدقاء حميمون له مسجلون هنا . لكنه سيتصل بطبيب مصرى نابه ، عبقرى ويتمنى له بمستقبل باهر مثل مجدى يعقوب ، سيتصل به ويطلب منه الحضور اليوم . رجاني ألا أقلق ، وأن كل شيء سيتم على أفضل وجه ممكن لى تصوره .

حوالي الواحدة ظهراً وصل الطبيب ، تجاوز الثلاثين بسنوات قليلة ، قربنى منه مما ذكره عن والده الذى كان ضابطاً فى الجيش المصرى برتبة لواء ، وأنه ذكرنى عدة مرات إذ أننى زرته فى موقع متقدم من الجبهة زمن حرب الاستنزاف ، كان ذلك سبباً قوياً لشعورى بالقرب ، يسبق ذلك أننى فى مواجهة طبيب ، وأنه مصرى ، أى يمكننى أن أفضى إليه بأدق ما أشعر به ، أن أشعر بالأمان ، صعدنا إلى الغرفة ، فتح حقيبته السوداء ، تشبه حقيبة طبيب الطوارئ الأول الذى فشل فى إدخال الأنبوب إلى المثانة ،

مقدمة إلى مربعات ومستطيلات ، لفافات قطن وشاش ، زجاجات صغيرة ، أغطية من البلاستيك تؤطر أشياء لا أعرفها ، ارتدى قفازاً أبيض اللون ، تطلع إلى بطني ، قال إن بقاء الفتحة هكذا فيه مخاطرة ، ليست الخشية من البول ، البول نفسه مطهر ، لكن الاحتراز ضروري حتى لا يتسرّب ميكروب يسبب ما لا يرجو حدوثه .

استفسرت منه عن التداعيات التي يمكن أن تقع .

كان صريحاً ، لم يخف عنّي شيئاً . قال إن أخطر شيء حدوث التهاب في الغشاء البريتوني ، أو تحجر الأمعاء نتيجة نفاذ ميكروب من البطن ، قال إنه في المستشفى طوال ليلة الغد بدءاً من العاشرة وحتى الصباح ، كتب لي رقم هاتفه المحمول ، وهاتف المنزل والمستشفى ، رجاني ألا أتردد في الاتصال به حتى الغد للاستفسار عن أي شيء ، عندما صافحني ، قال إنه يشعر تجاهي كأنه يعرفني منذ زمن طويل ، وأنني مثل والده ، لذلك لم يخف عنّي شيئاً ، طوال مكثه كان ناجي يطمئنني ويعتقد أن كل شيء سيكون على ما يرام ، تمام التمام .

بعد انصرافهما استدعيت ما قاله عن الاحتمالات الممكنة ، المعرفة مقلقة ، أدرك ذلك . الوعي بالمخاطر الكامنة مجيبة للقلق ، خلال سنوات الحرب ، كنت أصاحب بعض زملائي وصحيبي إلى الجبهة ، كانوا كتاباً وصحفين لم يعرفوا الحرب ، كنت ألحظ أنني أكثر حذراً منهم خاصة عند بدء القصف المدفعي ، أو سماع

أزيز الطائرات المغيرة ، كنت من خلال الفترة التي أمضيتها أعرف ما تعنيه تلك الانفجارات ، عيارات القذائف ، اتجاهاتها ، متى أنبعط ملتصقاً بالأرض ، مع مضى المدة وتكرار المواقف صار ذلك يتم تلقائياً وكأن الخطر المدمر يرتد بالإنسان إلى منطقة الحواس الأولى ، البدائية ، عندما كان الإنسان المهدد بالحيوانات المتوحشة ومفاجآت الطبيعة يستشعر دبيب الخطر المقرب قبل ظهوره .

لا أذكر أين سمعت بهذا الاسم ، الغشاء البريتوني ، لم تكن المرة الأولى التي أصغي فيها إلى الكلمتين المتصلتين ، الثانية منها تثير عندي توجساً خفيأ ، « البريتوني » أحياناً يحمل الاسم دلالات تشير إلى ما ينجم عنه المضمون ، لا أدرى أين قرأت أو سمعت أن التهاب هذا الغشاء مما يسبب الوفاة ، أما تحجر الأمعاء فهذا ما أسمع به لأول مرة ، أثناء تفريغى البول لاحظت تدفقه من الفتة المحاطة بسلك أسود يثبت الأنابيب ، كذلك نزول قطرات من فتحة عضوى ، تأكّدت من ذلك بعد عدة أوضاع وانحناءات ، إذا كان المجرى يسمح بخروج هذه قطرات بدون حرقان ، ألا يعني ذلك أنه سليم ، وأن الطبيب الأول لم يصبه بالتواء يؤدى إلى انسداد كامل كما ذكر طبيب الطوارئ في المستشفى ، من تجربتي أعرف أن أبناء المهنة الواحدة لا بد أن يظهر كل منهم عيّناً في عمل من سبقه وقد يبدى إعجابه في النادر ، لكل طبيب رؤيته وحاسته الندية لمن سبقه شأن الحرفيين ، لكن .. هل يصل الأمر إلى هذا الحد ، أم أنه كان يبرر عدم قدرته على إدخال القسطرة

من العضو مثل سابقه ، أم أن إدخالها من البطن هو الأسهل به .
مع تقدم الليل شرعت في الاستمناء ، ليس بداع من إثارة أو
الوصول إلى لحظة رجفة بمفردي ، ولكن لاختبار المجرى ، لو أنه
مصاب بالتواء فلن يتم القذف بيسير ، هكذا قدرت ، لم أكن على
علم بما أقدر عليه ، أو ما يمكن أن يجري ، أو صحة الوضع ،
لم يقع انتصاب ، إنما قذفت بالمية ، وعندما رأيت السائل المنوي
خارجاً بدون ألم أو تعسر رحت أطمئن نفسي ، مؤكداً سلامة
المجرى بدون أي مرجعية أو استناد إلى علم مسبق . كان ذلك
ما قبل منتصف الليل ، أي الأحد الثالث من أكتوبر سنة أربعة بعد
تمام الألفية الثانية ..

خارج باريس

14 ديسمبر

تلك محطة ديفانس ، الضاحية الحديثة التي تشبه مدن الحداثة المستنسخة من نيويورك ، الأرصفة فسيحة ، متعددة ، بعد اجتياز المحطة تبدو بعض المباني التي كنت ألمحها من نهاية خط المترو الذي يعمل داخل حدود مدينة باريس ، لا أذكر المناسبة التي جئت فيها إلى ديفانس . كان ذلك صباحاً ، مشيت بين بيوت بعضها شاهق الارتفاع والأخر متوسط . جلست إلى مقهى الغالب على طلاء جدرانه الأخضر ، أتذكر اللون جيداً ، لكن ما عدah لا أستطيع استعاده أى شيء ، بصحبة من ؟
لا أدرى ؟

لماذا جئت ومتى ؟

لا أعرف .

فيما عدا اللون الأخضر لم يتبق شيء في الذاكرة المثقلة . أطلع إلى خارج النافذة ، البيوت أقل ارتفاعاً . يمكنني أن أمح بعض النوافذ المضاءة ، لا توجد معالم محددة ، إنها الضواحي التي يأوي إليها الناس للنوم ، للإقامة . عدد الركاب النازلين أكثر من الصاعدين ، غداً صباحاً يكون العكس ، يبدو تزايد الضباب من خلال أضواء المصايف ، تحاول النفاذ من تلك الغلالة التي لا يمكن الإمساك بها ، عند خروج القطار البطيء من المحطة التالية ، رأيت بيوتاً من طابق واحد أو طابقين ، يحيط كل منها حدبة . تذكرت عزبة النخل . كان ذلك عام ستين من القرن الماضي ، كنت طالباً في مدرسة العباسية الثانوية الصناعية ، أحد زملائي بقسم تصميم السجاد اسمه سعيد ، كان رياضياً ، متيناً التكوين ، لذلك اختاروه ليكون قائداً للطابور الصباحي ، هو أيضاً أول من يرفع يده لتحية العلم . كما أنه اجتاز اختبارات التدريب العسكري للقفز بالمظلة ، كان ذلك يعني أنه سيركب الطائرة ، الإقلاع داخل الطائرة كان حلماً للجميع ، ولن خاصة ، كنا نسكن فوق سطح البيت رقم واحد ، عطفة باجنيد داخل درب الطبلاوي ، إنه المكان العالق بذاكرتي الأولى ، أمضيت أوقاتاً طويلاً العب بمفردي أو أنظر إلى الأفق الفسيح ، البعيد وقئذ ، أتابع الطائرات المحلقة ، أحفظ أنواعها حتى الآن ، أحلم أن أكون طياراً . ما زلت إذا خلوت بنفسي وأمسكت ورقة وقلمًا أرسم أشكالاً مختلفة للطائرات وأحياناً الصواريخ ، لم يكن سعيد يقص علينا مشاعره

ومشاهداته عندما تحركت به الطائرة وبدأت تتسلق الفراغ إلى أعلى ، ثم اجتيازه الباب المفتوح قاصداً الهو . سقوطه في اللحظات الأولى ، ما يسبق فتح المظلة . كان يقص علينا أيضاً تجاربه الجنسية مع فتيات يهمن به . يشرح لنا بتفصيل دقيق كيف مارس الجنس مع طالبة ثانوى وأوصلها إلى الرعشة المبتغاة بدون أن يضر عذريتها . لم يكن ذلك فقط ما ارتبط به . إنما سكن الضواحي . عندما مضيت إليه لنستذكر معاً دروساً مقررة كانت المرة الأولى التي أركب فيها القطار المتجه شرقاً ، ينتهي في المرج ، لفظ المرج يوحى وقتئذ بالبعد السحيق ، تسبقها محطة عزبة النخل حيث بيوت الموظفين والعاملين بهيئة السكك الحديدية، بيوت من طابق واحد ، حول كل منها حديقة ، خضراوات وفواكه مزروعة ، ترعة قريبة ، تقف في وسط المساحة أم سعيد ، سيدة قصيرة ، ممثلة ، ترتدي نظارات طبية ، أذكر أنها قالت شيئاً عن دراستها الفرنسية في مدرسة راهبات . لا أذكر مما نطقت به شيئاً آخر رغم أنها كانت تتردد علينا كثيراً لترى إذا ما كنا نحتاج شيئاً ما ، شاي ، قهوة ، شطائر ، ترتبط عندي بالضواحي ، كان ذهابي إلى سعيد يعني لي بعداً قصياً أكثر من ذلك الذي ينتابني عندما أقطع المسافة بالطائرة من القاهرة إلى برلين أو باريس أو حتى نيويورك ، ربما أستعيد إدراكي لهذا البعد مع إيجالي الليلي عبر تلك الضواحي ، يفوق الوعى بالمسافة من سان ميشيل إلى تلك المحطات وعيى بالمسافة بين القاهرة وباريس.

أتطلع إلى الساعة ، ما زال في الوقت فسحة ، ما أتمناه أن

نصل قبل السابعة بخمس دقائق ، يمرق القطار بشوارع ممتدة ، خلو من المارة ، الملح في الضباب امرأة تصحب كلباً ، أخرى خلال نافذة تنحني على منضدة ، سعيد صاحبى يرفع ذراعيه فى تمرينات رياضية يقوم بها فجأة ، بعد التخرج انقطعت أخباره عنى ، فى عام سبعين ، أى بعد تخرجى بثمانى سنوات ، وعملى بالصحافة مراسلاً حربياً ، اجتازت مدخل مبنى المخابرات العامة بصحبة زملاء لهم نفس التخصص ، كنا مدعوين لحضور مؤتمر صحفى للإعلان عن وقائع قضية تجسس ، ما بقى عندي من المبنى اللون الرمادى وتلك اللحظة التى رأيت فيها سعيد ، كان يقف خلف البوابة الرئيسية مرتدياً ذلك الذى الخاص بحراس المبنى ، زى لم أره فى أى مكان آخر ، عندما رأيته لم أدر كيف أتصرف ؟ وعندما التقت نظراتنا ولم يبدي عليه أى رد فعل ، لم أنطق ولم أبادر ، عندما اجتازت الباب فى طريق الخروج من المبنى لم يكن موجوداً ، لم أره فيما تلى ذلك ، يخيل إلى أن أحد زملائنا أخبرنى فى سنة لا أقدر على تحديدها بمرضه وتغير هيئة ، أى مرض ؟ لا أدرى ، أين رسابه الحال ؟ لا أعرف ..

قلت ماجدة :

« بقى خمس محطات .. »

كانت مستفرقة .

« آه .. المسافات أطول ... »

تقصد طبعاً أنها أطول من المحطات داخل المدينة . عاد كل منا إلى صمته وفي الخارج كان الضباب يزداد كثافة بحيث تبدو البيوت والطرق المؤدية من خلاله شظايا متناشرة .

برلين

الإثنين 4 أكتوبر

متمدد فوق السرير ، أتطلع إلى أغصان الشجرة التي تجتاز النافذة إلى الطوابق العليا ، الضوء الخريفي ، أتطلع إليه مدثرا بالصمت ، صمت عميق ، معقم ، لم يقطعه إلا رنين الهاتف المحمول مرتين ، الأولى من ابنتي في القاهرة ، والثانية من زوجتي التي كانت تقوم بزيارات مختلفة في فرانكفورت طبقاً للبرنامج الذي أعدته وزارة الخارجية الألمانية لجامعة من الصحفيين العرب ، كل منها سألتني عن صوتي ، ولماذا يبدو متعباً ؟ قررت أن أخبر زوجتي غداً إذا لم يحدث تغير جذري عقب زيارتي لصاحبنا الطبيب المصري الليلة عقب الندوة ، أما ابنتي التي تقيم بمفردها الآن بعد سفر محمد إلى الولايات المتحدة

فـسأـذـرـ مـهـمـاـ كـنـتـ مـتـعـبـاـ ،ـ المـكـالـمـةـ الـثـالـثـةـ عـبـرـ هـاـتـفـ الـفـنـدـقـ .ـ مـنـ سـيـدـةـ تـقـيـمـ فـىـ بـرـلـيـنـ ،ـ تـعـمـلـ فـىـ السـفـارـةـ الـمـصـرـيـةـ ،ـ قـالـتـ إـنـ اـسـمـهـاـ الـدـكـتـورـةـ وـفـاءـ شـفـيـقـ وـأـنـهـاـ تـكـتـبـ شـعـرـاـ وـنـثـرـاـ ،ـ تـرـغـبـ فـىـ عـرـضـ بـعـضـ الـنـصـوـصـ عـلـىـ لـمـعـرـفـةـ رـأـيـ ،ـ سـأـلـتـهـاـ عـمـاـ إـذـاـ كـانـ تـمـتـ بـصـلـةـ قـرـابـةـ إـلـىـ الـفـرـيقـ أـحـمـدـ شـفـيـقـ ،ـ قـائـدـ سـلاحـ الـطـيـرانـ السـابـقـ ،ـ وـزـيـرـ الـطـيـرانـ الـحـالـىـ ،ـ قـالـتـ إـنـهـاـ تـمـتـ إـلـىـ شـفـيـقـ آـخـرـ ،ـ سـأـلـتـهـاـ عـنـ الـقـسـمـ الـذـىـ تـعـمـلـ بـهـ فـىـ السـفـارـةـ ،ـ قـالـتـ إـنـهـاـ فـىـ الـقـسـمـ الـطـبـىـ ،ـ خـطـرـ لـىـ أـنـ أـقـصـ عـلـيـهـاـ مـاـ جـرـىـ ،ـ أـنـ أـطـلـبـ مـنـهـاـ النـصـحـ ،ـ غـيـرـ أـنـ خـجـلـاـ حـاشـنـىـ ،ـ إـنـهـاـ تـتـحـدـثـ إـلـىـ لـلـمـرـةـ الـأـولـىـ ،ـ ثـمـ أـنـىـ عـلـىـ مـوـعـدـ حـاسـمـ الـلـيـلـةـ لـفـكـ السـلـكـ ،ـ وـلـنـزـعـ الـقـسـطـرـةـ ،ـ أـتـطـلـعـ إـلـىـ الـوـضـعـ الـطـبـيـعـىـ ،ـ أـنـ يـخـرـجـ الـبـولـ كـمـاـ كـانـ الـأـمـرـ حـتـىـ يـوـمـ الـجـمـعـةـ الـمـاـضـىـ ،ـ كـلـ مـاـ أـتـطـلـعـ إـلـيـهـ إـلـآنـ أـنـ يـعـوـدـ هـذـاـ الـحـالـ الـذـىـ كـنـتـ أـعـتـبـرـهـ مـنـ الـمـسـلـمـاتـ الـمـفـرـوـغـ مـنـهـاـ ،ـ لـاـ أـدـرـىـ أـيـنـ قـرـأـتـ هـذـهـ الـحـكـاـيـةـ الـتـىـ تـتـحـدـثـ عـنـ لـقـاءـ الـخـلـيـفـةـ هـارـونـ الرـشـيدـ بـأـحـدـ الـدـرـاوـيـشـ ،ـ الـبـهـالـيـلـ ،ـ طـلـبـ مـنـهـ أـنـ يـدـعـوـ لـهـ .ـ عـنـدـئـذـ رـفـعـ الـبـهـلـوـلـ يـدـيـهـ إـلـىـ السـمـاءـ ،ـ دـعـاـلـهـ أـنـ يـشـرـبـ وـيـأـكـلـ ثـمـ يـتـبـولـ وـيـتـبـرـزـ ،ـ عـنـدـئـذـ غـضـبـ الـخـلـيـفـةـ .ـ اـعـتـبـرـ ذـلـكـ إـهـانـةـ لـهـ ،ـ وـعـبـثـاـ بـمـقـامـهـ ،ـ تـطـلـعـ إـلـيـهـ الـبـهـلـوـلـ مـتـعـجـبـاـ ،ـ قـالـ مـهـدـئـاـ :ـ إـذـنـ كـلـ وـاـشـرـبـ وـلـاـ تـتـبـولـ أـوـ تـتـبـرـزـ ،ـ اـنـصـرـفـ مـبـتـعـدـاـ ،ـ لـمـ يـمـضـ مـنـ الـوـقـتـ إـلـاـ سـاعـةـ وـبـدـأـ الـخـلـيـفـةـ يـشـعـرـ بـالـأـلـامـ لـمـ يـعـتـدـهـاـ مـنـ قـبـلـ .ـ حـاـوـلـ أـنـ يـكـتـمـهـاـ ،ـ وـعـنـدـمـاـ بـدـأـ الـصـرـاخـ جـاءـ الـأـطـبـاءـ .ـ حـارـوـاـ فـيـمـاـ جـرـىـ لـهـ ،ـ طـلـبـ مـنـهـمـ أـنـ يـبـحـثـوـاـ عـنـ الـدـرـاوـيـشـ الـبـهـلـوـلـ ،ـ وـعـنـدـمـاـ نـجـحـوـاـ فـيـ الـعـثـورـ عـلـيـهـ

أخيراً كان الخليفة العاتى يتلوى ألمًا ، بأنفاس متقطعة ، وآلام مفرطة ، رجاه أن يدعو له يفك حصره حتى وإن اضطر إلى أن يهبه نصف ملكه ، قال البهلوى إنه لا يحتاج الملك ودعا الله أن يفك حصر الخليفة !

سألت الدكتورة وفاء عن هاتفها . قلت إننى سأتصل بها غداً لتحديد موعد قبل سفرى من برلين صباح الخميس . طلبت منها أن تبلغ السفير محمد العرابى تحياتى ، قالت إنه فى فرانكفورت ، سأتصل به ، عرفت الرجل فى أبريل الماضى عندما جاء إلى الورشة الأدبية ليستمع إلى محاضرتى ، حدثنى عنه أصدقاء ألمان ومصريون ، عن أدائه الرفيع ، ونشاطه وتقديره للشأن الثقافى بالتحديد ، منذ أن رأيته فى أبريل الماضى تبادلت معه عدة رسائل متعلقة بأمور ثقافية ، أو تعليقاً من جانبه على حوارات لى بثها التليفزيون الألمانى .

فى المساء كنت أجلس فى القاعة نفسها التى رأيته فيها أبريل الماضى ، كانت المناقشة حية ، من أجل هاتين الساعتين أمضيت اليوم كله فى الغرفة حتى لا أبدد طاقتى ، خرجت عقب انتهاء الندوة إلى الطريق بصحبة ناجى ، أمضينا وقتاً فى البحث عن مكان انتظار سيارته ، تداخلت معالم المكان واختلطت عليه ، سأله عن مكان المستشفى ، قال إنه يبق حوالى مائتى كيلومتر ، أبدىت إشفاقى ، هذا سفر ، سيقود حوالى أربعمائة كيلومتر ، من حديث عابر أمس علمت أنه مرتبط غداً بموعد مبكر بترتيبات سفره إلى فرانكفورت ، إنه مراسل قناة النيل للأخبار ولا بد أن يصل إلى

هناك ظهر الغد ، الافتتاح بعد الظهر عصراً ، راح يخفف عنى ، متحدثاً عن سرعة الطرق وخلوها ليلاً ، سكت متأثراً عندما قال إنه لن يتركنى هكذا إلا إذا اطمأن إلى حالى .

الطرق عريضة ، الانطلاق عليها وفق قواعد صارمة ليلاً أو نهاراً . عيناي تتبعان عداد السرعة ، يقترب أحياناً من المائة وستين كيلومتراً . ليل ثقيل خلو من أى ضوء يفد من السماء ، غيوم كثيفة ، لكن لا مطر ، أشجار كثيفة ، قال ناجى إن هذه الطرق التى تخترق الغابات شقت خلال حكم النازى ، يبدو أنها كانت جزءاً من إعداد البلد للحرب ، قال إننا نخترق غابة ، لم أنتبه إلى الاسم الألمانى الذى ذكره ، بعد حوالى ساعة ونصف من القيادة الحذرة السريعة والتركيز فى مخارج الطرق ، لو حدث خطأ فى مخرج ما سيتغير اتجاهنا تماماً .

نعبر خطأ للسكة الحديدية ، يواجهنا بناء قديم الطراز . ربما يرجع إلى القرن التاسع عشر ، إذن .. لم يدمى فى الحربين ، ثمة حفرة تعوق تقدمنا ، قلت لناجى أنتى لمحت طريقاً بجوار السكة الحديدية ، عاد إلى ما قبل الخط الحديدى ، تقدمنا بحذر ، العرض يسمح بمرور العربة فقط ، بمجرد مرورنا أمام مبنى المحطة لاح مبنى المستشفى ، تحدث ناجى عبر المحمول ، التفت إلى ، قال إنه ينتظروننا أمام البوابة الرئيسية ، عندما نزلت من السيارة أطبقت المسافة الطويلة على ، البحث ليلاً عن مكان نصل إليه أو نود بلوغه يخفى أبعاداً شتى على الضياع ، على غموض القصد ، فى النهار يختلف الأمر ، يقول الأهل فى مصر : النهار له عينان . فى

الليل يختلف الأمر ، ويتضاعف في ليل البلاد الغريبة عنا ، لا يمكنني استعادة الطريق من برلين إلى هذا المكان بأكمله ، فقط أجزاء منه ، لكن ما يمثل عندي ذلك الأفق غير المرئي ، أدرك وجوده ، كذلك أدرك كثافة الأشجار التي كانت تبدو لي كتلة واحدة ، كتلة تسد الفراغ ، تدرك في مجملها وليس بتفصيلها .

« أهلاً .. أهلاً .. » .

بدت ملامح الطبيب صديقنا مطمئنة ، قال إن كل شيء سيتم بخير ، أخرجت خطاب التأمين الذي سلمته لي كريستينا لأنجاحي إحدى المسؤولات عن الورشة الأدبية ، خطاب يبدأ سريانه من تاريخ وصولي في الثلاثاء من سبتمبر وحتى مغادرتي ألمانيا في الثاني عشر من أكتوبر ، اجتازنا غرفة المدخل إلى صالة الاستقبال ، تكاد تكون نسخة من صالة الطوارئ في مستشفى ميونيخ الذي لا أعرف اسمه حتى الآن ، إذن صاحبنا الطبيب ، طبيب استقبال ، ليس متخصصاً في المسالك ، كنت أتمنى أن أمثل بين يدي متخصص ، لم أنطق بهواجسي ، خاصة بعد الجهد الذي بذله ناجي والوقت الذي أنفقه ، أما صاحبنا الطبيب فقد كانت ملامحه مطمئنة ، كما كان يبدو واثقاً ، تذكرت ما ذكره ناجي عن نبوغه ومقارنته بمجدى يعقوب ، غير أن صاحبنا ما زال في البداية ، ربما يصبح ذا شأن هنا في يوم ما ، إن احتلال مكانة هنا مع البداية ليس أمراً سهلاً .

قال إنه سيجري فحصاً بالأشعة الصوتية « سونار » أولاً ،

الجهاز نفسه الذى فحصنى طبيب ميونيخ به قبل أن يثقب بطنى لتركيب القسطرة ، بتأن راح يمرر الرأس الصغير المتصل بالجهاز بعد أن دهن بطنى بذلك المعجون اللزج الذى أعرفه الآن جيداً ، عندما استقر بمحاذة المثانة لاحظت ما يشبه الكرة الصغيرة داخلها ..

« إنها باللونة القسطرة ، يتم ضخ الماء إليها بعد إدخالها .

وهكذا تبقى عائمة .. » .

لأول مرة أعرف أن هذا الأنبوب متصل بكرة فى الداخل ، وأن ما يبقيها منتفخة ذلك الماء . عرفت أن مصدر تلك الحزة المؤلمة ، ذلك الوجع المستجد على مصدره احتكاك تلك الكرة بجدران المثانة ، يقول صاحبنا ..

« المراة جيدة ، الكلى بحالة جيدة ، ثمة التهاب بسيط فى الكلى اليسرى لكنه محدود جداً .. » .

يتوقف قليلاً ثم يقول :

« لا أدرى لماذا وضعاها هكذا .. »

تساءلت عما يقصده ..

« القسطرة ، لقد أدخلها على عمق .. »

ضغط أزراراً ، خرجت صور الفحص ، أعرف تماماً هذه الصور منذ أن أجريت الفحوصات على قلبي فى عيادة الدكتور جلال السعيد على قلبي بهذا الجهاز قبل سفرى إلى كليفلاند ، ربما يبدو

هذا الجهاز أحدث ، لكنه يقوم بالوظيفة نفسها ، مازلت أذكر أمواج البحر وأصوات العاصفة التي كنت أصغي إليها داخل قلبي عند تنقل هذه الرأس الصغيرة فوق صدري .

«إذا .. سنبدأ ..» .

تمددت فوق السرير الضيق ، أعرف الأوضاع الازمة الآن ، بدأ صاحبنا بقص السلك ، وعندما أخرج الأنبوب داهمني ألم غير أنتي تحملت . كرر دهشته من ذلك العمق الذي دفع خلاله بالقسطرة ، لم أدر إذا كان هذا صحيحاً أم أنها العادة نفسها التي تجعل أى طبيب يرى فى عمل من سبقة نقصاً أو عيباً ما .

قال إنه اتخذ احتياطات صارمة لمنع أى احتمال للتلوث . وبالتالي التهاب الغشاء البريتوني أو أى مضاعفات أخرى ، لم يكن يعنينى إلا هذا اللفظ المخيف ، إيقاعه فى حد ذاته نذير ، حتى الآن يمكننى المشى والانتقال ، أما أن يصل بي الأمر إلى العجز فى الغربة فهذا ما لا أتصوره ، حتى الآن أتطلع إلى انتهاء هذا الوضع ، إلى زوال ما أتصور أنه طارئ ، عابر ، أحاول «تلاصيم» حالى حتى وصولى إلى مصر ، هناك فليحدث لى ما يحدث ، أيا كان الحال فهو أفضل مما أمر به هنا ، عندما مرض أمل دنقلا ورقد فى الغرفة رقم ثمانية رفض السفر والعلاج بالخارج رغم أن الإمكانيات كانت متوفرة ، قال لي إن زيارات الأصدقاء والتفاهم حوله يرفع روحه المعنوية وهذا عامل مهم فى العلاج ومقاومة المرض ، ثم أن الأطباء المصريين يبذلون أقصى

الجهد وقدراتهم لا تقل إن لم تفق في بعض الحالات قدرات الأجانب .

انتهى صاحبنا من عمله ، قال إنه أزال القسطرة ، وضع فتيلًا مشبّعًا بصبغة اليود ، وأنه سيمر بعد غد لإزالته ، مضيّت إلى دورة المياه ، كانت قطرات البول قليلة ، مغموسة بصبغة اليود داكنة السوداد ، المهم أن المجرى يسمح بخروج البول ، كان بطني مغطى بضمادة كبيرة ملصقة بشريط أبيض ، وضع صاحبنا في حقيبة بلاستيك ضمادات وغيارات وعلبة بيتدرين مطهر ، وعلبة كحول أبيض ، كان يبذل أقصى العناية ، وكانت مشاعره جياشة ، تأثرت عندما ودعني في هذا الليل بعيد ، العميق ، مكررًا أنتي مثل والده الذي خاض الحرب التي عرفتها كراسل حربى ، عندما بدأت السيارة تتخذ طريق العودة كنت صامتاً ، حزيناً ، لا أعرف ما سأعرفه صباح الغد .

عند الفجر لاحظت أن الضمادة فوق بطني أصبحت مبتلة ، وعندما تأكّدت أن البول لم يعد يخرج تقرّيباً من القصيب اتصلت بصاحبنا على هاتفه المحمول ، أجابني الصوت الآلي بالألمانية ، بعد الصفير تركت رسالة أرجوه عبرها أن يتصل بي ، بعد ساعة رن جرس الهاتف ، كان محمد ، اعتذر عن إزعاجي له . رجوته أن يتحملني ، قال مشجعاً إنه يصفى إلى ، قلت إنني في حصر جديد ، قال إنه يرجوني أن أهداً ، سوف يساعد ذلك على التبول عبر الوضع الطبيعي .

من الثالثة صباحاً حتى العاشرة حاولت الاتصال به ، لم يكن هناك إلا الصوت الآلى ، ثم الصفير ، حوالي العاشرة والنصف اتصل بي ، قلت له إن الألم بدأ يفرى مثانتى ، وأن الغطاء مبتل ، وما من قطرة واحدة تخرج ، لقد بلغ الحصر أشدّه ، تماماً كما جرى أول مرة .

بدا عصبياً فى رده ، وعندما قال :

«أرجو أن تساعد نفسك .. ». .

أدركت أنه لا أمل وأننى يجب أن أسلك طريقاً آخر . فكرت فى الطبيبة الفارسية ، لكن وليد سافر إلى فرانكفورت ، كذلك ناجى ، ما من أحد يمكننى طلب العون منه ، قلبت فى الأوراق ، لحسن الحظ أن هاتف الدكتورة وفاء لم يضل عنى ، لم أفقده ، كثيراً ما أفقد الأشياء التى أحتاج إليها لحظة بدء بحثى عنها .

قلت للدكتور وفاء :

«ممكن تسمعينى شوية .. ». .

«طبعاً .. تفضل .. ». .

بتركيز وإيجاز رحت أحكى ما جرى منذ عصر الجمعة . قلت إننى الآن فى ذروة الحصر الثانى . وإننى ما أحتاجه طبيب متخصص ، لدى خطاب تأمين ، وإذا احتاج الأمر دفع تكاليف نقداً فلا توجد مشكلة .

«كل هذه أمور غير مهمة يا جمال بك .. المهم أن نجد الطبيب ..

سأتصل بك بعد عشر دقائق على الأكثر .. » .

قبل أن تمر الدقائق العشر اتصلت .

« مسافة الطريق سأكون عندك ، لقد تم تحديد موعد مع البروفيسور - غاب عنى اسمه - في مستشفى شاريتيه .. » .

بعد حوالي نصف ساعة كنت أقف عند مدخل الفندق مرحبًا بالدكتورة وفاء ، ملامحها مصرية صميمة ، تفيض حيوية ، كان السائق الألماني يقف إلى جوار العربة المرسيدس ، قالت الدكتورة وفاء إنها اتصلت بالسفير وأنه يهديني حياته وأمنياته بالشفاء ، كذلك ياسر بك الوزير المفوض . قالت إنها اتصلت بأحد أهم المتخصصين في المسالك في ألمانيا ، إنه البروفيسور رئيس قسم البولية بمستشفى شاريتيه الجامعي ، في الطريق كان قابل الحديد المحمى يتحرك داخلى . و كنت أحاول أن أحجب المى خجلاً من السيدة التي شاءت الأقدار أن تبدأ المساعدة قبل أن ترانى . هكذا شاء الترتيب ، ماذا كنت سأفعل لو أننى لم أدون الرقم عندما اتصلت بي بالأمس ؟ ، أحاول النأى بالخواطر عن البدائل الموجعة ، تبعد المستشفى عن الفندق حوالي ربع ساعة بالعربة ، المباني من الطوب الأحمر . ارتفاعها متساو ، ثلاثة طوابق ، تسأل الدكتورة وفاء عن قسم الأورلوجى - البولية - نصل إليه أخيراً ، تعرف طريقها جيداً ، بحكم عملها فهي على اتصال مستمر بالمستشفيات وكبار الأطباء ، فيما بعد عرفت أن مقابلة مثل هذا الأسبوع تحتاج إلى موعد مسبق لا بد أن يتم تحديده قبل أسبوع

على الأقل ، كان الطابق الأول الذى دخلنا إليه خلفية لما يشبه المطبخ أو آلات لتسخين المياه، مررنا بجوار أنابيب إلى ممر آخر حيث المصعد . إلى الطابق الثالث ، أبواب الحجرات معدنية تشبه الأبواب الداخلية فى سفينة حربية أو غواصة ، انتهينا إلى حجرة الكشف ، قالت الممرضة إن البروفيسور سيحصل فوراً ، لم تمر لحظات إلا وفتح الباب ، كان يميل إلى امتلاء ، يرتدى قميصاً أبيض ، كذلك البنطلون ، بدت ملامحه مألوفة ، ذكرتني هيئته باسم أحد أقارب الوالد ، كان اسمه عبد الرؤوف عاصم ، رغم أننى لا أعى ملامحه ، لكن هيئته الرجل وسمته تطابقاً مع حروف الاسم القديم عندي . بعد أن ذكرت ما جرى ، تمددت فوق السرير ، الوضع الذى اعتدته ، جلست الدكتورة وفاء إلى مقعد أمام المكتب وأدارت لنا ظهرها ، كانت تترجم عنى ما تسمعه وتذكر لى ما قاله الرجل ، مرة أخرى أرى ما تظهره الشاشة من حال مثانتى ، كانت شبهة ممثلة . هز البروفيسور رأسه ، انتزع الفتيل المبلل بصبة اليود ، غطى الفتحة الصغيرة بربع لاصق . سألت عن إمكانية حدوث تلوث ، أو التهاب عبره ؟ ، نفى إمكانية ذلك ، قال إن الجرح يلتئم خلال يومين ، قالت الدكتورة وفاء إن البروفيسور غير راض عما قام به الطبيب المصرى ليلة أمس ، أفسح ما بين ساقى ، نفذ الألم إلى داخلى حاداً . مركزاً . ينحنى بجسده ممسكاً بما لا أراه بيديه ، تعاونه ممرضة ، قالت الدكتورة وفاء ..

« الحمد لله .. نجح فى إدخال القسطرة .. » .

عندما وقفت كنت فى وضع جديد ، يخرج من عضوى أنبوب

أصفر اللون ينقسم إلى فرعين ، أحدهما ينتهي بما يشبه السدادة .
الآخر مفتوح ، خرج منه البول المحبس .

أمسكت المريضة بالكيس المصنوع من البلاستيك ، راحت تربطه حول فخذى على مهل بواسطة شريطين يمران به ، أرتنى كيف أصله بطرف القسطرة ، كيف أربطه ، أحكم وثاقه إلى ، قال البروفيسور إن الكيس يستخدم لمرة واحدة فقط ، قدمت إلى المريضة اثنين ، أيضاً سدادة زرقاء من البلاستيك تغلق طرف الأنبوة المفتوح أثناء تغيير الكيس حتى لا تطرطش قطرات البول فتلوث الملابس أو الجسد ، قال البروفيسور إنه يمكن السفر إلى فرانكفورت بهذه القسطرة ، يمكنني المشاركة في الندوات ، لكن يجب ألا أعرض نفسي لبذل مجهود يسبب لي إرهاقاً . قال إنه يمكن أن أمكث بهذه القسطرة أسبوعين منذ الآن ، قال إنه سيرانى غداً صباحاً في الحادية عشرة ، خرجت من حجرة الكشف إلى الممر إلى المصعد إلى ما بين مباني المستشفى الذي ذكرنى بمبانى قصر العينى القديم ، ربما يرجع طرازها إلى بدايات القرن الماضى ، عتيق إلى حد ما ، هل نفذت من دمار الحرب ؟ هل أعيد بناؤها ؟ كنت ممتنًا للدكتورة وفاء ، متأملاً في وضعى الجديد ، هذا ما فشل فى تحقيقه طبيب الطوارئ الأول ، وطبيب المستشفى الثانى ، كنت مطمئناً إلى البروفيسور ، إنه ليس متخصصاً فى المسالك فقط ، لكنه أستاذ ذو خبرة ، غير أننى مجرد عابر به ، يجب التفكير فيما سأفعله بمجرد وصولى إلى مطار القاهرة ، سأحاول ترتيب ذلك ، كنت توافقاً للعودة لبدء العلاج المؤدى إلى

خلاصى من هذا الحال ، قالت الدكتورة وفاء مؤكدة أن الطبيب كان واضحاً . يمكننى السفر إلى فرانكفورت ، تنفيذ البرنامج الموضوع ، قلت إننى وعدت عمرو موسى أمين الجامعة العربية بالحضور ، وأخشى أن يعتبر الرجل غيابى متضمناً موقف ما ، إننى حريص على نجاح جهده ، قالت الدكتورة وفاء إن بعض المرضى يقضون فترات طويلة بمثل هذه القسطرة ، قصدنا صيدلية فى شارع برلينى لا أعرف اسمه أو موقعه ، لم نجد إلا ثلاثة علب ، يحتوى كل منها على عشرة أكياس ، إذا افترضنا أننى سأستخدم أربعة أو خمسة يومياً ، فهذا يعنى أننى فى حاجة إلى ست علب على الأقل حتى وصولى إلى المطار ، قالت الدكتورة وفاء إنها ستحصل بصيدلية أخرى أكبر ، مثل هذه الأكياس لا بد من طلبها مقدماً ، كان سعر العلبة الواحدة خمسة وأربعين يورو . أى ما يقارب الثلاثمائة جنيه للعلبة الواحدة ، مكافأة الندوات ستذهب إلى أكياس البول ! ، فى ألمانيا لا يقوم أى أديب بجهد إلا ويتقاضى مقابلة مكافأة ، عندما يقدم قراءة . أى يقرأ قصة قصيرة أو رواية يتلقى مقابلأً لها ، بالنسبة للأجانب الزائرين ، المقابل ثلاثة يورو ، إذا أدلى بحديث إذاعى فثمة مكافأة ، أخبرنى الروائى الألمانى انجوس شولتز أن الكتاب الألمان يعيشون من تلك الأمسىات التى يقرأون فيها مقاطع من أعمالهم ، هو على سبيل المثال يشارك أسبوعياً فى أمسىتين أو ثلاثة ، هذا يوفر له دخلاً جيداً يمكنه من التفرغ للكتابة ، زرت ألمانيا لأول مرة عام ثمانية وثمانين ، أقصد ألمانيا الغربية - قبل الوحدة - إذ أننى

زرت الشرقية عام سبعة وثمانين ، قبل حضوري إلى مؤتمر انترليت الدولي والذي يعقد كل خمس سنوات ، أرسل لي المنظمون يستفسرون عن عدد القراءات التي يمكنني تقديمها . أجبتهم : اثنان فقط ، عندما وصلت إلى مدينة أرلنجن مقر المؤتمر . بعد مشاركتي في القراءة الأولى ، كانت في مدرسة فنية ثانوية تتبع شركة سيمنس ، فوجئت بالمرافق الألمانى يقدم إلى مظروفاً قال إنه مكافأة عن القراءة ، قدم إلى إيسالاً لتوقيعه . قرأت سطوره أثناء التوقيع خمسمائة مارك ، فيما تلا ذلك من سنوات ترددت على ألمانيا عدة مرات ، لم أحدد المرات التي يمكنني المشاركة فيها .

عند باب الفندق قدمت الدكتورة وفاء ملفاً أنيقاً يضم أشعارها وبعضاً من كتاباتها النثرية ، وعدتها أن أقرأها في اليوم نفسه ، كنت ممتناً لها ، للسفير ، للوزير المفوض الذي لم أره ولم ألتقط به حتى وقت تدويني هذا ، لم أعرف إلا صوته عبر الهاتف عندما كان يتصل بي للاطمئنان .

عصر ذلك اليوم اتصلت زوجتي من فرانكفورت ، ولم أكن أدرى كيف أطلعها على الأمر ، عندما أصغيت إلى صوتها قلت إن شيئاً سخيفاً جرى لي ، وبرغم محاولتى تهدئه نبر صوتي ، وكأنه أمر عارض إلا أنها صرخت :

« جرى إيه .. جرى إيه قل لي .. » .

بعد أن ذكرت ما جرى ، قالت إنها كانت متوجسة من صوتي ،

قالت إن السفر لم يعد يأتي إلا بما هو مزعج ، كانت مصراً على أن تقطع رحلتها ، أن تحضر إلى برلين ، بإصرار أكدت لها أن ذلك لا فائدة منه ، وأنني أحدثها بعد أن أصبحت الأمور مطمئنة ، ثم أنني سأكون في فرانكفورت صباح الخميس ، أى أننا سنلتقي معاً بعد زمن جد قصير ، في المساء لم أغادر الحجرة ، بدأت أتكيف مع الوضع الجديد ، الرقاد على الظهر ، تمريض الأنبوب المؤدى إلى الكيس فوق ركبتي ، وضع الكيس إلى جوار السرير أو فوقه ، أمكنني النوم إلى جانبي الأيمن أو الأيسر لكن أثناء يقظتي ، فيما تلا ذلك من أيام تدرّبت على الإغفاء أثناء رقادى إلى جانبي الأيمن الذي اعتدته ، تكيفت أيضاً مع وضع الكيس حول فخذه ، سرعة تغييره ، عند خروجي إلى الطريق أو مكان عام أقلّ من شرب الماء خلال النصف ساعة السابق على المغادرة ، قال الطبيب المصري أثناء فحصي إن نقطة الماء تستفرق اثنين وعشرين دقيقة تقريرياً منذ عبورها إلى الفم ونزوّلها من المثانة ، اثناء مكثي في الغرفة أستخدم الكيس الأكبر ، عند الخروج الكيس الأصغر ، حجمه مناسب ولا يمكن ملاحظته من البنطلون ، منذ الاثنين وحتى الخميس صباحاً لم أغادر غرفة الفندق إلا مرة واحدة . صباح الثلاثاء بصحبة الدكتورة وفاء إلى مستشفى شاريتيه ، قبل أن ألتقي بالطبيب ، البروفيسور جلست متطرّفاً في المر ، أتأمل ملامح المرضى ، بعضهم من الأتراك المقيمين هنا ، فكرت ، كيف أبدو للآخرين ؟ رغم أننا نتقرب في مكان دقيق وهام بالنسبة لكل منا ، غير أن كلاً منا في عيني الآخر مجرد

صورة ، ملامح عابرة ، ما من اتصال ، قالت الدكتورة وفاء إن البروفيسور سيفرغ من عملية جراحية يجريها . مرة أخرى أفكر فيه واقفاً ، منحنياً على مريض مجهول لي ، الممر هادئ ، على مناضد صغيرة زجاجات مياه وأكواب من البلاستيك ، الأبواب المعدنية البارزة قليلاً تفتح فجأة ، يخرج منها مرضى أو ممرضات ، الخطوات جادة ، سريعة ، والحديث قليل ، بل لا يكاد يسمع أى صوت ، فقط وقع الأقدام أثناء الحركة ، قمت لأمشي في اتجاه النافذة متطلعاً إلى ما يمكن رؤيته ، ما قد يعلق بالذاكرة عندما يتاح لي استعادة تلك الأيام وبعض ملامحها كما أرجو وأتمنى !

البروفيسور ..

فوجئت به أمامي خارجاً من المصعد ، صافحته مرحباً ، بادلني الابتسام ، تقدمني إلى غرفته ، الحجرة نفسها التي تم فيها أمس تركيب القسطرة ، يبدو أنه طلب من الدكتورة وفاء أن تبقى في الخارج ، بعد أن نظر إلى الأنبوة الخارج من قضيبى المتصل بالكيس المثبت إلى فخذى ، هز رأسه راضياً . أشار إلى البول المتجمع مردداً « good .. good .. good » .

طلب مني أن أستدير ، أن أنحنى واقفاً ، آه .. جئنا إلى الجزء السخيف من الكشف ، عندما رأى ترددى ، تقدم إلى السرير الذى تمددت فوقه أمس ، أسند يديه إلى حافته ، انحنى ، تقدمت ، ارتدى قفازاً من المطاط ، دفع أصبعه داخلى بقوة . ألم مركز ، ثاقب ، لم يستمر إلا ثوان ، تراجع ملقياً القفاز في سلة صغيرة

بجور السرير مردداً بالإنجليزية .. « Big » .

بعد أن أحكمت ربط الحزام جلست أمامه ، استدعي المريضه والدكتورة وفاء ، قال إن البروستاتا متضخمة ، الحجم يعتبر من الدرجة الثانية ، أى أن التضخم ليس مفرطاً ، لابد من علاج ، إما بالأدوية أو الجراحة ، سألت مرة ثانية عن إمكانية العلاج بالأدوية ، قال إن ذلك ممكن طبعاً ، اللجوء إلى الجراحة لا يكون إلا بعد فشل الأدوية ، ذكر لي اسم طبيب مصرى كان يعد معه رسالة الدكتوراه حول أورام البروستاتا . نطق اسم عائلته « الفيل » قال إنه عاد العام الماضى إلى مصر ، وأنه يعمل الآن فى قصر العينى ، فتح درجه ، أخرج أوراقاً ، قدم إلى رقمين ، الأول لهاتف المنزل ، والثانى للمحمول ، سأله عن تقديره لوجود أورام خبيثة ، قال إنه لا يظن ذلك ، سأله عن تكاليف الجراحة فى المستشفى ، قال إنها تبلغ الخمسة عشر ألف يورو . قبل انصرافنا طلبت الدكتورة وفاء أصل خطاب الضمان ، قالت : ربما تحتاج إليه فى فرانكفورت ، عندئذ سأله أن يكتب لي اسم أحد الأساتذة المتخصصين فى المدينة ، كتب لي اسمين ، كان ودوداً أو عنده مسحة دعاية ، ودعته على أمل أن ألقاه يوماً فى القاهرة ، خرجنا إلى المدينة ، إلى الصيدلية الأكبر الواقعه داخل سوق مركزى - مول - عدت منها أحمل أربع علب أخرى ، اثنان تحويان أكياساً كبيرة ، والأخران للعبوة الصغيرة . قصدت الفندق ، لم أخرج منه إلا صباح الخميس . السادسة صباحاً ، قاصداً المحطة الأخيرة فى رحلتنا ، إلى فرانكفورت .

باريس

14 ديسمبر

السادسة والربع مساءً

يغمر الضباب الموجودات ، يمر القطار بمناطق لا يبدو منها إلا بقایا أضواء ، طشاش نور أفلت من ذلك الحضور الرهيف الكثيف ، حاجب الرؤية رغم عسر أو استحالة الإمساك به ، لمسة مع أنه يحجب كافة ما يمكن أن يدركه البصر ، لعل الأكثف ذلك الذي فاجأنا منذ حوالي عشرين عاماً عندما كنا نسكن ضاحية حلوان . خرجنـا حوالي التاسعة ليلاً قاصدين زيارة صاحبة عزيزة وصلـت في زيارة سريعة ، تقيم بالخارج . قادت ماجدة السيارة في اتجاه الكورنيش بمـجرد وصولـنا إلى المنـحنـى المؤـدى إلى الطريق المحاذـى للنـهـر ، تـطلـ عليهـ هناكـ استراحة مـلكـيةـ سابـقةـ تـعـرـفـ بـرـكـنـ فـارـوقـ ، عـنـدـمـاـ عـاـيـنـتـ مـوـقـعـهاـ أـوـلـ مـرـةـ تـأـكـدـتـ أـنـهـ

أحيط بخبراء في اكتشاف الجمال ، موقع فريد عندما يشبه المنحنى للنهر ، المسافة عريضة ، على الضفة الأخرى نخيل راسخ ، متراص كأنه جدار .

عند ركن فاروق بدأ الضباب ، ما إن قطعنا حوالي كيلومتر إلى الشمال إلا وبدأ يزداد كثافة ، اضطرت ماجدة إلى تهدئة السرعة ، كذلك السيارات الأخرى، لم أدر هل يجيء من السماء أم يتتساعد من الأرض ، ما إن قاربنا منطقة المعصرة حتى بدأ الحال كما لو أننا نخوض في بحر من اللبن الأبيض الناصع الكثيف الذي لا يدع لنا رؤية النهر ولا الشاطئ ولا البيوت ، كان لا بد من الاستدارة والعودة لكن على مهل وبطء . كافة العربات التزمت الحذر . لم يعد من هاد إلا أضواء الفرامل الصفراء التي تضيء في مؤخرات السيارات كلما ضغط السائقون تلك الفرامل . في مثل هذه الظروف يلتزم الجميع الجانب الحذر . المسافة التي نقطعها عادة في عشر دقائق إلى البيت . استغرقت منا ثلاثة ساعات ، مثل هذا الضباب السائل اللبناني ينزل على الطرق الزراعية عند الغروب أو في الصباح الباكر ، يغطي حقول القمح والذرة والأرز والبرسيم ، غير أن ضباب الضواحي هذا الذي نمر به أو فيه يبدو أقل كثافة وأشد استدعاء للبعد والغربة .

في أبريل الماضي . عندما نزلت ميونيخ قادماً من القاهرة لإلقاء محاضرة في الأكاديمية البافارية ، وصلت قبل الموعد بيومين بسبب مواعيد الطائرات المباشرة ، كل يوم جمعة تقلع طائرة مصر للطيران مباشرة إلى ميونيخ ، استضافني صديقى عالم الفيزياء الشهير

الدكتور محمد النشائى فى ضاحية تقع بجبل الألب جنوب المدينة ، اسمها جارمش ، يقيم فى شقة تواجه أعلى قمة فى المنطقة ، قمة يكسوها ثلج أبيض ناصع ، لديه شقة صغيرة أخرى على مقربة تتكون من حجرة وصالة ، أقامت فيها بمفردى ، تطل على حديقة البيت المواجه ، المكان أشبه بمنتجع للأثرياء ، المقيمون فيه قلة ، معظم البيوت والشقق لمشاهير من العالم وأثرياء يجيئون فى أوقات معلومة كل سنة وقد لا يفدون على الإطلاق ، لذلك تبدو معظم الطرق خالية ، المقيمون من التقاعدin ، لاحظت خلو جارمش من الأطفال والشباب ، فى اليوم التالى لاحظت ندرة الفتيات . أصغى صاحبى إلى ملاحظاتى مبتسماً ، تذكرت المثل المصرى « جنة من غير ناس ما تنداس .. » المكان جميل جداً ، والمرتفعات المطلة على بحيرات خضراء المياه ، صافية ، تشكل ما يشبه الصور التى تثير عندنا الرغبة فى رؤية الجمال ، شتان ما بين ضباب تلك الأصباح وهذا الضباب العالق خارج القطار ، المعمق لتلك البرودة الليلية ، برد غير عادى فى مثل هذا الوقت ، درجة الحرارة ما دون الصفر ، عند دخول القطار إحدى المحطات هدا من سرعته ، عند أقصى حد الرصيف تقف فتاة ترتدى معطفاً بمفردها ، كانت قريبة جداً من القطار ، لماذا تقف عند هذه النقطة ؟ تبدو مستفرقة ، مصباح الضوء الذى تقف تحته أبرزها لى من خلال الضباب ، معظمها وليس كلها ، لكننى عندما أحاول استعادتها أكاد أرى ملامحها ، ملامح من وجوه غاربة ، عبرت مجال بصرى ، عبرتها ولم أعرف أصحابها ، ملامح وافدة من مناطق مستعصية على الإدراك ، تماماً مثل الوجوه التى نراها فى أحلامنا ، لا نعرف أصحابها

أو منابعهم ، هل هم ترديد لمن مرروا بنا ومررنا بهم يوماً ثم غابوا عن الذاكرة البصرية ، أم أنهم وهم ، لا وجود لهم في الواقع ، أتطلع إلى ماجدة ، هل لاحظت تلك الوقفة ؟

في جارمش اعتدت الاستيقاظ مبكراً . قبل تناول إفطاري أخرج إلى الشوارع المحيطة ، أجهد في تحديد علامات ، مثل اسم الشارع ، ولافتة حمراء تعلن عن شيء ما ، ومنزل ذي عمارة متميزة ، حتى لا أضل الطريق ، خاصة في أول يوم ، اكتشفت ذلك الجدول الذي يتدفق عبره الماء ، لابد أنه قادم من الأعلى ، من مرتفعات الألب ، أو من نقطة ما . لا شيء مثل الماء يوحى لي . الماء في كل أحواله ، الساكن ، المتحرك المتدفق ، لم يكن الجدول عريضاً ، لكن تدفق الماء عبره جارف ، هادر ، يمكن سماع صوته قبل بلوغ الحافة ، يمر تحت قناطر وجسور صغيرة تصل الطرقات ببعضها ، في اليوم التالي كنت أكثر معرفة بالمكان ، لذلك لم يردنى **الضباب الكثيف** عن المشي ، قررت أن أتبع الخط الوهمي الذي تبقى في ذاكرتى من الأمس ، عند ناصية ، أمام بيت من طابقين فوجئت بها ، تستند إلى دراجة . لا يبدو إلا جانب منها ، عندما اقتربت لاحت لي مفرودة ، فتية ، جريئة على برد أبريل الألبي ، لم تكن ترتدي إلا فانلة بنصف كم ، وبنطلونا من الجينز الأزرق ، تضع صحيفة مطوية في صندوق الرسائل ، تعود إلى الدراجة ، كانت فارهة ، سيسابانية الفرع . عندما مالت انحسرت الفانلة فضوى لون جسدها الذي بدا ما بين الحافتين ، حافة البنطلون والقميص . تقدمتني على مهل ، وكانت حركة

قدميها على بDAL الدرجة إيذانا بتأود جسدها ، انخفاض ناحية وارتفاع أخرى بقدر جد يسير لكنه كاف لبث موسيقى خفية في الكون ، في الحضور كله ، الأنوثة تعيد صياغة الداخل والخارج من جديد ، المكان والحالة . توقفت أمام البيت التالي ، رأيتها من خلال الضباب. لم تبد كلها ، وعندما عادت إلى الدرجة التفت صوبى ، فقط نصفها الأعلى عندما أحكمت وضعها قبل أن تنطلق، أما الأسفل فحجبه عنى الضباب . ضبطت إيقاع خطوتى بحيث لا أتجاوزها ، تقدمها بالدرجة أسرع ، لكن ما يبقيها في إطار بصرى توقفها وتناول نسخة من الجريدة ثم وضعها في الصندوق أو إدخالها من تحت باب مغلق ، عند منتصف الطريق رأيت نصفها الأسفل ، غمر الضباب جذعها الأعلى ، وعندما تحركت مرة أخرى لم أر إلا ذراعيها المكتملتين . البجين فكأنهما إشارة إلى غيبها الخاص ، إلى ظهورها المنتظر ، وعند نهاية الطريق غمر الضباب غصتها عدا ذلك الجزء المسفر عن ذاته من جسدها ، ما بين حدى قطعتى ثيابها .

قبل المنعطف توارت تماما ، غمر الضباب حضورها ، لكن فيضها بقى عندي ، لا أستعيده إلا وتدركنى حالة ، يمر بي مرح ، خاصة مع استعادة ظهور أنحائها وأطرافها وتلك الطاقة . مع تمهل القطار أتطلع إلى الخريطة ، أقوم من مكان لأتمكن من القراءة، أعود إلى ماجدة التي كانت تتبعنى بالنظر ، صامتة إنه ذلك الصمت الذي يلجأ إليه كل منا تهربا من لحظة فاصلة نوشك أن نبلغها « فريكتوار .. المحطة التالية .. » .

** معرفتي **
www.books4all.net
منتديات سور الأزبكية

فرانكفورت

7 أكتوبر إلى الحادى عشر منه

INTER CITY

إنه الفندق عينه الذى نزلت به منذ عامين ، عندما جئت إلى معرض فرانكفورت للمشاركة فى ندوة حول بناء الجسور بين الشرق والغرب . إنه الموضوع الذى تعقد حوله الندوات ، وتلقى البحوث ، وتجري المناقشات ، تمركز الاهتمام حول كافة ما يتصل به بعد الحادى عشر من سبتمبر وما جرى فى نيويورك ، عندما أخبرنى صديقى بيتر ربن منسق أنشطة المركز الدولى بالمعرض، لم أربط بين اسم الفندق والمكان الذى أقامت به ليلتين قبل عامين ، ربما لأننى جئت المرة الأولى من المطار ليلاً مبasherة إليه . لم أتوقف كثيراً عند اسمه . رغم اهتمامى بالأمكنة التى أعبرها

ولا أقيم فيها إلا أوقات قصيرة ، أدون اسم المنزل أو المكان ، وربما أحفظ بشيء متعلق به ، مثل البطاقات التي تعرف به أو علبة كبريت تحمل الاسم وأرقام الفاكس والهاتف ، لم تتم بيدي وبين هذا الفندق أى علاقة حتى أتنى لم أتوقف عند اسمه ، مجرد سرير بين أربعة جدران نمت فوقه عدة ساعات ، عادة أتجنب الإقامة في الفنادق المواجهة أو القريبة من محطات السكك الحديد ، أو المطارات ، إنها أماكن العبور السريع ، لا تبث الحميمية ولا تشجع على الصلة أيا كان مستواها ، خلال أسبوعي التي قمت بها أثناء عملي في مؤسسة التعاون الإنتاجي كمصمم للسجاد الفارسي . كنت أسبوعاً للتفتيش على المصنع الصغيرة التابعة للمؤسسة والتي يقوم الصناع فيها بتنفيذ التصميمات التي تصلهم من مكاتبنا في القاهرة . يمكن القول إنني جبت مصر شمالاً وجنوباً حتى الواحات القصبة غرباً ، والقرى التي لا وجود لها على الخرائط ، كان بدل السفر المخصص للموظفين الصغار أمثالى هزيلاً ، كان أربعين قرشاً في اليوم ، لذلك لم يكن أمامي إلا الاستراحات الحكومية إذا تيسر ، أو الفنادق الصغيرة ، الفقيرة ، أماكن النوم للمتعبين . الكادحين الذين ليس لهم مكان آخر ، مجرد مكان يئوى ويستر لساعات ليلية فحسب ، الغالبية فيه غرباء ، تتقاطع أزمنتهم ومصائرهم ، من الفنادق التي أذكرها دائماً ذلك الفندق في مدينة المنيا ، قريب من المحطة ، حجراته من الزمن القديم فسيحة . مرتفعة الجدران ، يحتوى كل منها على سبعة أو ثمانية أسرة مصفوفة بجوار بعضها . أما اللوكس - كما

تعلن اللافتة - فغرف أصغر بكل منها سريران أو ثلاثة ، لا يعرف الفندق الغرفة ذات السرير الواحد ، اللافتة المعلقة فوق مدبر اللوكاندة ، كان رجلاً يرتدي معطفاً أصفر اللون . من معاطف الجيش الإنجليزي ، كنت أراه صيفاً وشتاءً ملتحفاً به ، وعندما سألته مرة قال بصوت أخش إن ما يحوش البرد يحوش الشرد . أسعار المبيت تبدأ من عشرة قروش أعلى سعر وتقل إلى خمسة ليلة الواحدة . لكن يوجد سعر آخر ، ثلاثة قروش مقابل الاستراحة فقط من الحادية عشرة صباحاً إلى الرابعة بعد الظهر ، لهذه الاستراحة زبائنها ، إنهم عمال الليل الغرباء ، يكبحون طوال الليل ويجيئون للنوم نهاراً فوق الأسرة نفسها ، بعد الغروب يفترشها نزلاء آخرون يجيئون ليلاً ، أمضيت ليلة في غرفة لوكس ، أو مخصوص كما تصفها قائمة الأسعار أى بها سريران فقط ، كان أحدهما عريضاً والأخر أقل عرضاً يرقد فوقه موظف بحلته الكاملة ونظارته الطبية ، يتوسد حقيبة جلدية ربما تحوى أوراقاً هامة أو بعض المال . كان هادئاً الأنفاس حتى ليحسبه الناظر إليه جثة هامدة ، لكنه على فترات متساوية يطلق شخرة قوية ، تستمر ثوانى لكنها تبدو طويلة بالقياس إلى الوقت ، كانت تنبثق فجأة وعندئذ يرفع رأسه ، يتلفت حوله ، أسمع ما يشبه مصمصة شفتين ثم يستأنف نومه ، حوالي منتصف الليل أيقظني مدبر اللوكاندة ، قال إن السرير عريض ، هل باستطاعتي أن أفسح مكاناً للحاج ، أشار إلى رجل ضخم الحجم ، عمامته عالية يقف خلفه ، لم يكن بوسعي أن أغادر للبحث عن فندق آخر ،

ساعات ويطلع النهار ، إذن .. فلأ تحمل ، انكمشت إلى قرب الحافة ، عندما تمدد طقطقت أخشاب السرير « الملة » لعظم جرمه وثقل بنيته ، نام « خلف خلاف » أى أن رأسه كانت بحذاء قدمى ، ورأسى كذلك ، رغم ضخامته إلا أن نومه كان كطفل ، لكن عندما ارتفعت شخرة الأفندي المباغتة رفع رأسه ، خيل إلى أنه ضحك ثم راح في النوم ، قرب الفجر غفوت ، في السادسة صباحاً استيقظ الأفندي ، خرج ليحاسب ويغادر ، في السابعة استيقظ جارى في السرير ، بعد أن استعاد بالله وذكر اسمه ، تطلع إلى طويلاً ، سأله عن بلدى ، السؤال عن المنشأ مفتتح التعارف بين المصريين ، قلت له إننى من جهة لكننى أعيش في مصر (القاهرة) قال إن ناس جهة أجدع الناس وإننى لذلك يمكن أن أفهم ما سيقوله ، مال نحوى ، طلب منى أن أدعوه له ، أشار إلى شال عمامته ، قال إنه إذا وفق بفضل من الله فسيعدل الشال ، أو مأت ، أخرج طبقة من صديريته كان ينام على ظهره لو جودها هنا إذن . تأملها ، حرك جزءاً منها إلى الوراء فسمعت تكة ، قام مغادراً الفراش متمتماً ، « توكلت على الله » كان ماضياً ليقتل شخصاً ما ، ليأخذ ثأراً ، بعد أن يقتل هذا المجهول لي يمكنه أن يلف شال عمامته بشكل صحيح . إنه مقلوب الآن لأنه لم يأخذ بالتأثير بعد ، في المساء كنت أتناول عشاءً عند أبو جلال صاحب معطم الفول الشهير بجودة ما يقدمه ، عندما سمعته يتحدث عن مقتل متهم أمام المحطة بالرصاص بمجرد مفارقتها عربة الترحيلة ، كان متهمًا في جريمة قتل ، استسلم القاتل الذي جاء من إحدى

القرى شرق النهر بدون مشاكل .

أهو الشخص نفسه ؟

ربما .

باستمرار أستعيد هذه الليلة ، خاصة عند نزولى فنادق العابرين بسرعة ، صحيح أن كل فندق للعبور وليس للإقامة ، لكن الأمر نسبي ، طبعا فندق الإنترستي لا يشبه تلك الفنادق الفقيرة إنه مصنف على أساس أربعة نجوم ، كما أن إيجار الغرفة مرتفع بالنسبة إلى الفنادق المماثلة ، حوالي مائة يورو في الليلة ، فى أيام المعرض يعسر وجود غرفة واحدة شاغرة في المدينة ، يقع هذا الفندق على مسافة سبع أو ثمانى دقائق مشيا ، محطة مترو واحدة فقط . ينزل فيه ضيوف المعرض الذين دعتهم الإداره والمركز الدولى ، غير أن الجوهر يظل واحدا ، إنه أحد الفنادق المواجهة لمحطة السكك الحديدية ، حيث يشتد وقع الغربة المتداخل مع الضياع الخفى ، أما الفندق نفسه فيتسم بأمور لاحظتها منذ إقامتي الأولى التي لم تكن مماثلة لظروفى في المرة الحالية ، الثانية . بعد إجراءات التسجيل في مكتب الاستقبال واستلام المفتاح يتم الخروج والدخول من البوابة المفتوحة إلى الغرفة مباشرة ، لا يوجد حارس عند الباب ، لا يتطلع إلى الداخلين أو الخارجين أحد . فكأن الغرفة مفتوحة على الشارع مباشرة ، ثمة بار إلى يمين الداخل ، المصاعد بعيدة عن مكاتب الاستقبال ، لم أدر إذا كان ثمة نظام أمني خفى ، عندما استفسرت من صديق يعيش

في فرانكفورت ، قال إن المنطقة آمنة جداً لوجود مركز البوليس أمام الفندق ، بجوار المحطة مباشرة ، لم أقتنع فما علاقة مركز البوليس بداخل الفندق المفتوح ، بل إن المطعم الذي يقدم الإفطار لا يوجد على بابه من يستفسر من الداخل أو الخارج ، لن تفارقني تلك الليلة التي انتابتني فيها كوابيس عن مطاردة ما ، دخول بعضهم من النافذة ، خاصة أنها كانت تطل على سطح يفصل بين جناح الفندق عند الطابق الأول الذي تقع غرفتي به ، أى أن من يدخل لن يحتاج إلى تسلق جدران ، أو التحايل على إقفال باب ، فقط ما عليه إلا أن يدفع النافذة أو ينشر زجاجها ، لم تكن تخيفني فكرة استهدافى ، إنما كان محور الكابوس شد أنبوب القسطرة المتصل بالكيس الموضوع بجوار السرير ، كان ذلك هاجسياً ومحور مخاوفى .

في هذه الغرفة بدأت ترتيب ما سيكون عليه وضعى بعد عودتى إلى وطني ، منذ حوالي عشرين عاماً ، قرأت خبراً عن إجراء الأستاذ محمد حسنين هيكل لعملية جراحية دقيقة في مصر ، أجرتها له الدكتورة حازم ترك ، أذكر أننى زرته بعدها ، أشار بدقه العملية ومهارة الجراح الذي يعتبر رأس مجده ، أقدمهم ، وأكثرهم خبرة ، بعد سنوات قال لي إنه أجرى فحصاً طبياً في الولايات المتحدة ، عندما اطلعوا على عملية إزالة البروستاتا استفسروا منه عما إذا كانت تلك الدقة نتيجة كونه ذا مكانة ، أم أن هذا مستوى الأطباء في مصر ، أجابهم أنه مستوى الأطباء في مصر ، إنه الجيل الذي ينتمي إليه جلال السعيد ومحمد

أبو الغار و محمد غنيم ومن قبلهم ياسين عبدالغار والمفتى .
بمن أتصل ؟

الدكتور محمد أبو الغار .

تربطنى بالرجل صلة إنسانية عميقة ، وثقى به طبیباً وإنساناً غير محدودة ، طلبته عبر هاتفي المحمول ، بعد المحاولة الثانية أجابنى ، قلت له إننى فى ألمانيا ، وأن عارضاً صحياً صعباً جرى لى ، فوجئت به يطلب منى رقم الهاتف العادى قلت إننى أتحدث من هاتفى الجوال و يمكننى المواصلة ، قال إنه فى الكويت ، وإنه يفضل أن يطلبنى من الهاتف العادى ، بعد أن أغلقت الهاتف ، رحت أتطلع إلى هاتف الفندق ، لا يريد الرجل أن يكلفنى الكثير من المال ، أتحدث من هاتفى الجوال إلى هاتفه المماشى ، كلانا يدفع ، لكنه عندما يتحدث سيرتحمل هو تكاليف المكالمة .

يرن جرس الهاتف

يجىء صوته الهادىء ، المطمئن ، أصغرى إلى ما ذكرته ، قال إنه سيجرى اتصالاته ثم يتصل بي ، قال إنه يفكر فى حازم ، لكنه لا يعرف إن كان حازم موجوداً فى مصر أم خارجها . لقد أجرى عملية جراحية فى لندن ، لكنه لا يعرف هل عاد أم لا ؟

بعد حوالى نصف ساعة من الانتظار يرن الهاتف مرة أخرى ، قال إنه اتصل بالدكتور حازم فعلاً . لقد عاد من الخارج وسيبدأ العمل الأسبوع المقبل ، على أى حال يمكننى أن أتصل به هاتفيأ الآن ، إنه ينتظر منى ...

يرن جرس الهاتف المحمول في القاهرة ، ما من إجابة ، أضع الجهاز بجواري ، أتطلع إليه يائساً ، أعرف صعوبة الاتصال ببعض الأطباء الكبار ، مشاغلهم كثيرة ، لا أعرف ملامح الدكتور حازم ، لم ألتقط به قط ، ما حيرني أنه تحدث إلى الدكتور أبو الغار منذ دقائق ، لماذا لم يرد ؟ ، ربما يكون قد فارق الهاتف ، ربما أغلق الجرس ، يمضي الوقت ثقيلاً مع الانفراد والحيرة والحرص حتى لا أرتكب خطأ يقلل وضع القسطرة أرقب قطرات البول تنحدر على جدران الكيس لتشتت جمع في قاعه . ثمة شيء في الحجرة يضاعف إدراكي للخواص ، الفراش مريح ، التليفزيون في مواجهتي ، مخطوطات ألمانية ، واحدة فرنسية ، أخرى إيطالية ، ثلاثة إنجليزية ، رابعة إسبانية ، لا توجد قناة عربية ، تعلن فضائية الآرتي عن أمسية عن غدا الجمعة والسبت عن الأدب العربي ، ثلاثة صغيرة تضم زجاجات مياه وأنواعاً من المشروبات الكحولية ، مفردات الفنادق فوق المتوسطة . ومع ذلك ثمة ما يجعلني أشعر بثقل خفي ، كأنني في قاع جب ، حوالي ساعة أتطلع إلى نقطة ثابتة من الأرض ، في التاسعة أعدت المحاولة ، وجاءني صوت الدكتور حازم ترك ، صوت سريع ، صاحبه متذبذب ، يتكلم ببساطة وكأنه لن يتوقف ، ودود ، ألوف ، لكم ظلمت الرجل عندما ظننت أنه لم يرد على الهاتف تشاغلاً ، أو تعالياً .

« ها .. أحكى لى على اللي حصل .. »

بعد أن ذكرت ما جرى منذ وصولي ميونيخ ، سألني عن وضع القسطرة ، وهل هي من السليكون ؟ ، كانت تلك أول مرة

أسمع شيئاً يتعلق بالقسترة ، قلت إنها صفراء اللون . قال على أى حال سنرى ، حدثى عن فترة النقاهة التى يمضيها بعد عودته من إنجلترا . قال إنه يقيم فى بيت ابنته حتى تأخذ بالها منه . فهمت أنه يعيش وحيداً بعد وفاة زوجته . عبر الهاتف أدركت بساطته وأمكنتى تكوين تصور للامحه ، قال لي إن محمد ابنه سيكون فى العيادة يوم الاثنين ، وكان ذلك تعليقاً على تأكيدى له بأننى سأتجه من المطار إلى العيادة فى ميدان باب اللوق ، مرات عديدة قرأت اسمه معلقاً إلى العمارة الضخمة المجاورة لمبنى الغرفة التجارية والملحق بها قاعة فن تشكيلي رأيت فيها معارض عديدة خاصة فى الستينات .

إذن .. هذا أول الترتيب

الخطوة الثانية ، عزت القمحاوى . عزت أيضاً الذى شاء قدره أن يكون معى خطوة بخطوة عام ستة وتسعين منذ بدء الأزمات القلبية التى انتهت بالجراحة فى كليفلاند ، طلبت منه أن يبلغ مدير الإداره الطبية فى دار أخبار اليوم بحالتى واضطرارى إلى التوجه فوراً إلى المستشفى ، قلت إننى اتصلت فعلاً بالدكتور حازم ترك وإذا كان القرار هو الجراحة فسوف يجريها .

صباح اليوم التالى اتصل بي عزت ليؤكد لي أن كل شيء تمام ، الدكتور بهاء مدير الإداره الطبية اتصل فعلاً بالمستشفى ، وأخبرهم بإمكانية دخولى فى أى وقت ، وبالطبع أوصى على العناية وغرفة لائقه ، طلب منى عزت أن أنتبه إلى نفسي وكل شيء سيتم على أفضل وجه ، ألح على الحضور إلى المطار غير

أنتي طلبت منه أن يقابلني في وسط المدينة ، لا معنى لتكبده المشاق ، خاصة أن جدول عمله في سكرتارية تحرير الأخبار ينتهي السابعة مساء يوم الاثنين المقدر وصولي فيه .

عاد الدكتور محمد أبو الغار ليتصل ، قال إنه علم من حازم باتصالى به ، وأنه سيعود إلى القاهرة مساء الأحد ، ثم يسافر الأربعاء إلى الولايات المتحدة ، ويريد الاطمئنان إلى ترتيب الأوضاع ، قال إن حازم لديه خطة علاج بالأدوية قبل أن يقرر إجراء جراحة .

حتى سفرى كان يتصل بي يومياً مرتين للاطمئنان ، كانت أصوات أبو الغار وحازم ترك وعزت تدثرنى بالراحة ، وتعد حدثاً له شأن في صمت تلك الغرفة التي لم تقم بي بينها وأى صلة . قبل سفرى من القاهرة وعبر عدة اتصالات هاتفية أكد لي صديقى بيتر ربكن أنتي خلال إقامتك فى فرانكفورت سوف أكون بصحبة ماجدة التي ترتبط ببرنامج وزارة الخارجية . يبدو أن صعوبات حالت دون تحقيق ذلك . كان الفندق الذى تم الحجز فيه لوفد الصحفيين يقع في ضاحية تبعد حوالي ساعة عن فرانكفورت بالقطار ، كان الوفد يضم أيضاً زميلي محمود الورданى الذى رأيته لدقائق سريعة في المعرض ، كانوا يتحركون معاً ، وعندما التقى ب Mageed كانت في حالة عصبية .

« مش معقول أنا أقوم بزيارات وأنت في هذه الحالة .. »

غير أنتي أكدت لها قدرتى على تدبیر أمورى ، والدليل أنتي

أتحرك بشكل طبيعي ، ومن لا يعرف ما حل بي لا يمكن أن يستنتاج ما أنا عليه ، هكذا كنا نلتقي في المعرض ، في المركز الصحفي . ثم نلتتحق بالوفد لتبدأ رحلة العودة إلى مقر الإقامة ، شاركت في أربع ندوات . الأولى حول ألف ليلة وليلة التي ترجمتها المستعربة كلوديا أوت عن طبعة برييل التي حققها الدكتور محسن مهدي عن أقدم مخطوطه ، والثانية عن العلاقات بين الشرق والغرب في الظروف الحالية التي أعقبت الحادى عشر من سبتمبر . ومرة أخرى عن ألف ليلة وليلة في جناح مكتبة الإسكندرية ، وقراءة في بيت الأدب ، التقيت بعمرو موسى في جناح الناشرين العرب ، بادرني بالسؤال عن رأيي ، قلت له إن الحضور الإعلامي المصاحب للمعرض لم يحدث من قبل بالنسبة للثقافة العربية ، قلت له إنني حرصت على الحضور لأنني وعدته في القاهرة رغم ظروف طارئة . تصافحنا وانصرف ، كنت لا أدخل إلى المعرض إلا لحضور ندوة التزمت بها . أو لأمضى بعض الوقت في جناح ناشرى الألماني « بيك » الحق أن المعرض مبهج . وقد اقتنى في ذهني بوصف كنت أردده دائمًا « جنة الكتب » . كنت أتمنى أن أمضى به وقتاً أطول ، لكنني كنت أشعر بإعياء ، مصادره عديدة ، منها الوضع غير الطبيعي الذي أمر به ، وندرة النوم ، أكثر ما يرهقني الحديث ، في المعرض أصدقاء كثيرون . لا أمشي خطوة إلا ويقع البصر عليهم . إنه أكتاف حضور للمثقفين العرب في حدث ثقافي . كثيرون جاءوا على نفقتهم الخاصة ، إذ أفرغ من مشاركتي في ندوة أسرع بالخروج من أقرب باب ، أمشي إلى الفندق مشياً على الأقدام ، أتناول الطعام في مطعم

صيني قريب ، تعرفت إلى بقال إيراني ، يعرض الفستق والزبيب والأصناف الإيرانية ، كان لديه ركن صغير للأسطوانات الموسيقية، عندما سأله عن تسجيلات للمطربة حميرا التي أُعشق صوتها . وعن أعمال محمد رضا شجريان ، وشهرام ناظري ، صار يناديني بأخرى ، ويخصم لي نسبة من السعر . أعود إلى الفندق بزجاجات الماء ، يومياً أشرب حوالي أربعة لترات ، في الليلة قبل الأخيرة عدت حوالي العاشرة والنصف بعد انتهاء قراءتي في دار الأدب ، حاولت أن أجد مطعماً مختلفاً ، في الشارع المجاور للفندق توقفت أمام مدخل وإعلان عن وجبات ، صورة كل وجبة معروضة ، واضح أنه يقدم الوجبات السريعة ، عندما اجتازت الباب لم أر أى مناضد . فقط بار للخمور ، رجال واقفون . ينتمون إلى أحد البلدان الإفريقية ، ربما الحبشة أو جيبوتي ، كثافة الدخان قوية ، كان لابد أن أفعل شيئاً ما ، خاصة أنهم تطلعوا إلى بفضل ، وربما بشيء من الصد ، واضح أن المكان يخصهم ، أشبه بناد ، اتجهت إلى عامل البار ، سأله عن طعام ، قال إنهم يقدمون مشروبات فقط . لم أجادله ، لم أسأله عن صور الأطباق المعلقة في الخارج والموضح أسعارها، كان جميع من يقفون يتطلعون ناحيتي بفضول ، خرجمت إلى الطريق الليلي شبه الخاوي أمشي حذراً ، سريع الخطى . اتجهت إلى البقال الإيراني ، اشتريت بلحا وزبيباً كبير الحجم ، عدت إلى الفندق . عندما أستعيد تلك الأيام لا أرى إلا هذه الغرفة ، الضوء النهاري بها ، الذي يبدو كأنه يصدر عنها ولا يتجاوزها ، لا يأتي عبر النافذة ، هدوء يعمق العزلة ، لا أرى نفسي إلا متمدداً فوق السرير،

متطلعاً إلى فراغ ، أو مصفيأً إلى العمق، حذراً من مفاجأة ضارة لا أعرف كنهها بالضبط ، أبتسم أحياناً عندما أتصور إمكانية دخول أنشى أو سعى إحداهم ناحيتي ، توحى الفنادق بالتعارف السريع والعلاقات العابرة ، ثمة توقع مستمر لنقرات الباب ثم دخول حسناء ، تبدي الدهشة ، تعذر ، أدعوها فتدخل . كنت أسخر من مثل هذا التوقع . في الطبيعة .. ألا تبادر البذور المذكورة بالسعى إلى الإناث للتلقيح . في جميع أجناس الحيوان ، ألا يبدأ تحرش الذكور أولاً ؟ . لكن .. ماذا لو جرى هذا هنا وأنا على هذه الحال . كيف سيكون رد الفعل عندما تكتشف ذلك الكيس المتصل بأنبوب نافذ إلى داخل جسدي ؟، أفكار وصور وأحلام غامضة وإدراك مستمر لخطر ما محقق . صباح الاثنين الحادى عشر من أكتوبر اجتننا باب مطار فرانكفورت كان الزحام شديداً، طوابير طويلة أمام بوابات التفتيش الإلكترونية ، اتجهت إلى مضيفة تنتمى إلى شركة لوفتهانزا ، سألتها عما إذا كان يوجد مدخل خاص لأصحاب الظروف الخاصة . لم أشرح لها بالضبط تفاصيل إصابتى . لكننى ذكرت القسطرة للمضيف الذى يجلس إلى المكان الذى دلتني عليه ، مكتب خاص بالمعاقين ، يعلق علامة الكرسى المتحرك . لم يطلب منى أية ورقة أو إثبات . أنهى إجراءات سفرى فى دقائق . اتجهت إلى البوابة التى سأخرج منها إلى المطار ، الوقت مبكر . جلست إلى منضدة صغيرة أنهى مقالى لأخبار الأدب عن المعرض ، غير معنى بما سيكون طالما أننى بعد ساعات سوف أكون بين قومى آمناً البغتات ، مدثراً بعنایتهم .

ضاحية بونتواز

14 ديسمبر 2004

من أحلامي التي تتكرر على فترات . وصولي إلى مكان مجهول ، غالباً عند نهاية محطة للحافلات ، أو القطارات ، غالباً ما يكون آخر موعد ، أى مامن وسيلة للعودة من حيث جئت . أتجه إلى عنوان مالاً أدرى أين يقع بالضبط ولا أعرف بمن سألتقي .

هكذا بدت لي محطة سيرجي برفكتوار .

عندما غادرنا عربة المترو ، اتجهنا إلى البوابات الآلية ، لافتتاح إلا بعد إدخال التذكرة في الآلة الملحة بها ، يبدو أن ثمة خطأ وقع ، رفضت الآلة القبول ، أضاء الضوء الأحمر ، تطلعت حائراً ، هنا أدركتني أحد العاملين بالمحطة ، أشار إلى باب جانبي فتحه بعد أن ضغط زرًا ، تطلع إلى التذكرةتين ، قال إن قيمتهما أقل من

المسافة ، فقط طلب أن ننتبه المرة القادمة ، خرجنا إلى الساحة المواجهة ، كان الضباب يتواجد من جميع الجهات ، حركة الناس المسرعة توحى لنا بالهروب أكثر منها الرغبة في العودة إلى البيت ، البرد يحنى القامات ، كل من هؤلاء سوف يستقر بعد فترة قصيرة في بيت ، لكنني بصحبة ماجدة نمضي إلى لحظة حاسمة . أدرك حالنا عند الذهاب ، ترى .. كيف سيكون بعد الإياب ؟ .

نتجه إلى أرصفة الحافلات ، أتطلع إلى اللافتات التي تحمل الأرقام ، أشير إلى إحداها ، « هنا يا ماجدة .. رقم 44 .. »

تدخل كل حافلة فجأة وكأنها تنقض ، مدة الوقف قليلة ، محدودة ، يسارع الواقفون لكن في نظام ، كنت أتطلع إلى الساعة قلقاً ، استغرق المترو وقتاً ، المسافات طويلة بين المحطات ، في لحظة معينة خيل إلى أنها لن تنقض ، إنه يمضي بلا حد ، بلا نقطة يتوقف عندها . رغم خروجنا المبكر إلا أننا احتجنا إلى ساعة ونصف لكي نصل إلى هنا ، الرحلة ليست من مصر إلى فرنسا ، ولا من الفندق إلى هذه الضاحية النائية ، بدأت في لحظة ما ، زمن ما من الماضي ، وربما من السنوات المنقضية بعد عودتي من كليفلاند بالولايات المتحدة . ذلك السعال المتكرر ، الجاف ، كان لابد من تهدئته أو إيقافه . في المستشفى كافة التخصصات ، تم استدعاء الدكتور مصطفى الذهبي ، عندما دخل حجرتي الفسيحة المطلة على النيل ، الثانية والنصف ظهراً كنت بمفردي ، كان دخوله حانياً ، هادئاً ، أما ملامحه فتجسد تلك الكلمة التي نصف بها بعض من نحب « طيب » . كلمة مصرية ذات دلالات عديدة ، كان

ممكأ بالسماعة ، سأله عما إذا كان يمت بصلة قرابة إلى الشيخ الذهبي الذي اغتالته جماعة التكفير والهجرة منذ حوالي خمسة وعشرين عاماً ؟ قال إنه ابنه ، كان مقتضاً في الكلام لكنه دال ، تطلعت إليه بهدوء وثقة أيضاً ، قال إنه قرأ تقرير الأشعة ، ينصح بعرضها على أحد الأخصائيين في باريس ، تطلعت إليه متسائلاً ، لماذا ؟ ، قال إن الأشعة أظهرت وجود حوالي أربع بؤر متكلسة ، صغيرة جداً ، كل منها بضعة ملليمترات ، واحدة منها قريبة من الغشاء البللوري ، ربما يكون ذلك سبباً في هذا السعال الجاف الذي يحاول تهدئته قبل إجراء العملية ، قال إن تحديد نوعية هذه البؤر يحتاج إلى أخذ عينة وتحليلها ، إنه يفضل إجراء هذا التحليل في باريس ، لا داعي لذلك قبل العملية المقررة لأن أخذ العينة في حد ذاته يحتاج إلى ترتيبات ، كان الوقت ظهراً ، حوالي الثانية والنصف ، لم يتبق على موعد الإفطار إلا حوالي ثلاثة ساعات .

قلت إن الصديق سمير سرحان لديه خبرة في مثل هذا الأمر ، لقد مر بأزمة حادة ، وقدر لي أن أراه خلال فترة علاجه في باريس كان مثيراً للألم عندي أن التقى به وهو جالس إلى كرس متحرك يدفعه زوج شقيقته ، عانقته وحاولت أن أخفى تأثرني ، رحت أتبع أخباره ، علمت أن علاجه يتقدم وأنه يتحسن ، وعندما عاد إلى مصر كانت الحالة قد تم السيطرة عليها . قال عبر الهاتف إنه سوف يسافر خلال أيام إلى فرنسا لمتابعة العلاج ، يمكنه أن يأخذ معه صور الأشعة لعرضها على الطبيب الذي عالجه ، اسمه الدكتور ليفي ، طبيب عبقرى ، ثم أن وسائل محاضرة المرض

تقدمت جداً ، بالطبع كان سمير يحاول التهويين من الأمر ، و كنت أصفى محايداً، كأن هذا يخص غيري ، شكرته و قلت إننى سأرسل إليه صور الأشعة مطبوعة وعلى قرص مدمج صباح الغد، أملتى على ماجدة زوجتى رقم الدكتور ليفى في باريس ، قال إن الوقت المناسب لكتالته بعد السادسة مساء .

كان ذلك عرضاً جديداً لم أتوقعه ، في المساء كان هناك رأى آخر لصديقتنا شمس الأتربي ، وهى فنانة قديرة ، طورت فن الجلباب النسائي وقدمت عروضاً جميلة من تراثنا الشعبي ، تربطنا بها صلة وطيدة ، تمت بصلة القرابة إلى ماجدة زوجتى ، قالت إنها تقترح تحديد موعد مع الدكتور شيفالىه لعرض الأشعة عليه ، في باريس مستشار طبى نشط جداً ودقيق ، الدكتور شريف الهندي ، لكنها عندما ذكرت اسم المعهد الشهير ، جوستاف روسى ، توجست ، صحيح أنه المعهد الأول فى العالم لمعالجة الأورام ، والدكتور شيفالىه هو الخبر الأول به ، صحبت المرحوم على الشوباشى مرة لزيارة زوجة صديق عزيز كانت تعالج به ، رأيت آثار الأشعة ، مازالت ذاكرتى تحتفظ بتفاصيل عديدة من تلك الزيارة ، لم أتصور يوماً أننى سوف أدخله مريضاً ، الدكتور ليفى الذى نصح به صديقنا سمير سرحان متخصص أيضاً في الأورام ، خاصة ما يتعلق بالرئة ، لكنه لا يعمل فى جوستاف روسى ، للاسم قوة ودلائل شتى ، وللاسم قدرة على العمل ، أحياناً يكون مجرد ذكره جالباً لقدر ما ، ربما يكون ذلك سبباً للاتصال بالدكتور ليفى بعد أن حدد لنا الدكتور شريف الهندي

موعداً بالفعل مع الدكتور شيفاليه ، اتصلت به ورجوته إلغاءه
معذراً عما سببته من إزعاج ، الصديق القديم خليل النعيمي
ينتظرنا الآن لإجراء تصوير بالأشعة المقطعة بواسطة هذا الجهاز
الحديث جداً والذي لا يوجد مثله في كثير من الدول الأوروبية .

ما الذي يوحى به اسم بونتواز ؟ ، من سيرجي بونتواز ؟ ،
اسم شخص ؟ أم مكان ؟ أو مناسبة ما ؟ ، لا أعرف ، ولا أقدر
على التفسير ، تصريح ماجدة « أربعة وأربعين ... »

لم يكن عدد الركاب كبيراً ، جلسنا خلف السائقه مباشرة ،
تحدثت إليها ماجدة ، المحطة اسمها « المستشفى » إذن سنصل في
الموعد ..

القاهرة

الإثنين الحادى عشر من أكتوبر

أيا كان ما ينتظرنى ، أيا كان ما سيحدث ، فيكفينى أننى أسعى فوق الأرض التى أتمنى أن أصير جزءاً من ثراها يوماً ، كنت موّاراً بانفعالات شتى أثناء إجراءات لخروجى من المطار . عبر الهاتف قلت لعزمت إننى اعتدت السفر من خلال الإجراءات العادية ، هذه المرة كل مأرجوه أن ينتظرنى أحد الزملاء من مكتب أخبار اليوم بالمطار ، من خلال خبرتى يعد توقيت الوصول ، حوالى السادسة مساء إلى المطار ذروة الكثافة ، تصل عدة طائرات معاً ، الفرنسية والإماراتية والسعوية والألمانية ، المنافذ محددة ، والطوابير طويلة ، وإجراءات الكشف على الجوازات ماتزال بدائية ، كان من الممكن أن أطلب مقعداً متحركاً ، لكننى

كنت قادراً على المشي ، ويبدو أن فرحي بوصولى سالماً ، بمعنى أننى قادر على السير بمفردى بعد أن اجتاز المخاطر التى قامت وأحدقت جعلنى أبدو مبتهجاً ، فرحاً ، حتى أن إبراهيم الموظف بمكتب أخبار اليوم عندما رأنى ، قال إننى أبدو فى حال غير ذلك الذى توقعه . اتصل بي عزت ، قال إنه سينتهى من عمله حوالي السابعة والنصف ، وأنه سيأتى إلى عيادة الدكتور حازم ، قلت أننى سأتجه فوراً إلى ميدان باب اللوق ، اتصلت بابنتى ، كانت بمفردها فى البيت ، تنتظر ، قلت إننى سأتجه للعزاء فى زميل عزيز على توفي منذ يومين ، أبدت دهشة ، قالت إن الجنازة شيعت والعزاء أقيم أمس ، قرأت الخبر فى الصحف ، قلت إنه زميل عزيز ، رافقته خلال مدة طويلة ، ولا بد من تأدية الواجب لأسرته ، حاولت أن أبدو طبيعياً ، موائماً ، ملائماً لما اعتادته ، قررت أن أخبرها بما جرى عند وصولى ، ولكن أن أطلعها وهى بمفردها ، وبدون أن تراني فربما يكون وقع ذلك قاسياً عليها .

ودعت الأديبتين منصورة عز الدين ، وزهرة يسرى ، كان صلاح زميلى والذى يتولى قيادة السيارة قلقاً ، مباغتاً ، لم يعرف إلا عندما أخبره عزت ظهر اليوم فقط ، اتجهنا إلى العمارة حيث تقع العيادة ، اتصلت بالدكتور حازم ، قال إن محمد سيرانى الليلة ، وسوف يلتقي بي غداً فى بيته المعادى ، إذن . نحن جيران ، أصفيت عبر الهاتف إلى صوت محمد حازم ترك ، بدا متزناً ، عميقاً ، طلب منى أن أتجه إلى عيادة متخصصة فى

الأشعة ، تقع بعمارة مقابلة ، لابد من إجراء أشعة بالموجات فوق الصوتية « سونار » ، هنا انتبهت إلى الخطأ الذى وقعت فيه ، كان لابد أن أطلب نسخة من تلك الأشعة التى أجريتها ثلاث مرات . أرجو ألا يتسبب هذا فى تأخيرى ، قال الدكتور محمد إنه سيتصل بالعيادة حتى يتم إجراء الأشعة بسرعة ، عندما وصلت العيادة رحب بي الطبيب الشاب الذى سيقوم بإجراء الفحص ، تمنى لي الشفاء ، قال إنه قرأ الزينى برؤسات منذ سنوات ، بدا ودوداً ، قال إن الأشعة تحتاج امتلاء المثانة ، مع القسطرة يتم تفريغها أولاً بأول ، مطلوب فصلها ، أى إغلاق الأنبوب الموصل إلى الكيس وشرب كمية ماء ، قال إن المثانة حجمها ينكمش مع عدم تجمع البول ، قدم إلى مايشبه المقص لإغلاق الأنبوب ، لكننى أخرجت من جيبي الصمام الأزرق الذى حصلت عليه يوم تركيب القسطرة فى برلين ، لا أدرى لماذا احتفظت به فى جيبي ؟ ، ربما لصغره ودقته وخشيته أن أفقده ، دخلت إلى دورة المياه ، قمت بفصل الأنبوب وإغلاقه بالصمام ، عند خروجى قال الطبيب الشاب إن الدكتور صاحب العيادة يريد أن يطمئن على ، دخلت إلى مكتبه ، صافحنى مرحباً بحرارة ، تمنى لي الشفاء وقال إنه سيرانى مرة أخرى بعد إجراء الأشعة ، نزلت إلى الشارع ، انتقالى من ألمانيا إلى مصر خلال ساعات يجعلنى أفاجأ بالفرق . على سبيل المثال هذا الصمام ، عندما رأيت ماقدمه لى الطبيب الشاب ، فوجئت بحجمه ، كان كبيراً بالنسبة للحيز الذى سيوضع

فيه داخل البنطلون ، الصمام المصنوع من البلاستيك جزء من القسطرة التي تم تركيبها ، المسألة الأخرى هي الانتظار ، كان عدد المرضى المنتظرين دورهم لإجراء الأشعة كبيرة ، دخولي مباشرة أشعرني بخجل ، ثمة أطباء آخرون يحددون الموعد بدقة وهؤلاء قلة ، إذ أدخل إلى عيادة أحدهم في موعدى الذي تحدد مسبقاً ، الخامسة والربع مثلاً ، لا أجد عدداً كبيراً ، كل في موعده ، من هؤلاء الدكتور محمد إبراهيم طبيب العيون الذي أعرفه منذ ثلاثة عقود ، والدكتور جلال السعيد الذي بدأت صلتي به منذ عشر سنوات ، لكن القاعدة العامة في عيادات أطبائنا الانتظار واضطراب المواعيد ، اتصل بي عزت القمحاوى قال إنه موجود في مقهى باب اللوق الذى اتخذته مقراً وركتنا لى أكثر من ثلاثين عاماً ، قلت إننى لن أحضر إلى المقهى ، وصفت له بدقة محل العصير الذى قصدته في ميدان باب اللوق ، لسنوات طويلة كنت أستمتع بشرب عصير القصب منه ، دكان صغير لا يتسع الفراغ المتاح به إلا لاثنين ، كان كل ما فيه يضوى ، نظافة بادية ، عناء ، يدخل صاحبه النحيل العجوز الصامت إلى عمق المكان حيث آلة العصير التي يتم غسلها بعد كل مرة ، كان يعصر العيدان وفقاً للطلب ، لا يحتفظ بعصير جاهز في السطل المعدنى ضيق الخصر المطلى بالفضة ، نظافته مائلة عندي دائماً . منذ سنوات طويلة لم أشرب عصير القصب خشية التلوث ، خاصة أن حلاوته تجعله مرتعاً لفيروس س ، عصير القصب مدر للبول ، وجدت محل قد اتسع

لا أدرى كيف؟ أعيدت صياغته، يقدم أكثر من صنف، خروب، تمر هندي، عصائر الفاكهة المتنوعة، يوجد عصير القصب أيضاً، جاء عزت، تعانقنا، قال إن كل شيء جاهز، يمكنني الذهاب إلى مستشفى السلام، الدخول بالبطاقة الصحفية فقط، قلت إن القرار للطبيب وسوف نرى. جرعت خمسة أكواب، عندما عدنا إلى العيادة كان الطبيب الشاب مشغولاً بفحص مريضة، كان المكان الذي تمددت داخله قبل حوالي نصف ساعة مغلقاً، بدأ شعورى بالوخز، بعد قليل تحول إلى ألم، تذكرت الحصر الأول والثانى، نفذت من مخاطرها قبيل لحظات قليلة من دنو الخطر، انفجار المثانة، أخشى حدوث ذلك هنا خاصة بعد ما عرفته عن تقلص الحجم بسبب انعدام التخزين. مع مضى الوقت اضطررت تحت الضغط إلى تفريغ بعض مما تجمع عندما وصل إلى حد لا يمكنني احتماله، حوالي التاسعة والنصف كنت أحمل تقرير الأشعة متوجهة بصحبة عزت إلى عيادة الدكتور حازم ترك.

حصل الدكتور محمد نجل الدكتور حازم على الدكتوراه فى المسالك البولية، أبدى ترحيباً وقال ما أخجلنى، شرف له أن يلتقي بي، أصفي إلى بعمق، استفسر عن أسماء المستشفيات الألمانية، لم أذكر منها إلا مستشفى شاريته فى برلين، أما اسم الدكتور الذى نجح فى تركيب القسطرة فلم أكتب ولم يعلق بذهنى، خلال اللقاء اتصل بوالده أكثر من مرة، موضوع الحديث حالتى بالطبع، القرار كان ببدء العلاج بالعقاقير، اعتباراً من الليلة وحتى يوم

السبت صباحاً، سأتناول نوعين من الأقراص ، الأول مخفض للضغط يستخدم في علاج أورام البروستاتا الحميدة ، والثاني يدخل في تركيبة هورمون ما ، مرتين أتناولهما يومياً ، سالت الدكتور محمد .

« هل سأعود إلى التبول بطريقة طبيعية .. »

قال على الفور

« طبعاً .. ».

عندما غادرته متوجهاً إلى البيت كنت رغم إرهاقى شرحاً ، كأننى انتهيت من اجتياز مرحلة خطر رغم أننى أبداً ، ألم تصبح أيام المانيا ذكرى الآن ؟ ألم أصل ماشياً على قدمى ، وأعياً إلى مصر ؟ ، ألم تنته أيام البقاء فى غرف الفنادق غير الحميمة ، حملقى إلى الفراغ . إبخارى فى الزمن الحالى من العلامات ؟ ، هأنذا أتجه إلى مكتبتي الخاصة ، المكان الذى يمكننى أن أمضى فيه أسابيع متوالية بمفردى ، اعتيادى على الوحدة أمر قديم لكنه تزايد خلال السنوات الأخيرة ، عرفت العزلة القسرية خلال مرحلة مبكرة فى حياتى ، عندما أمضيت فى السجن الانفرادى أربعين يوماً وخلال المدة كنت أضبط نفسي مستمتعاً بوقتى ، برحيلى داخلى ، ربما أصبحت هذه الفترة مرجعية ذلك الشعور القوى بالوحدة والرکون إليه ، الفترة الثانية خلال عام ثلاثة وسبعين

عندما استيقظت صباح الرابع من فبراير لأجد نفسي في قائمة من وصفوا بالمنحرفين والذين تقرر فصلهم من الاتحاد الاشتراكي الحزب الوحيد ذلك الوقت مع أنني لم أكن عضواً به في أي مرحلة، ولم أحير أية استماراة عضوية به ، بل أعترف أنني لم أحز يوماً أى بطاقة انتخابية ولم أمثل أمام أى صندوق انتخابي باستثناء صندوق نقابة الصحفيين واتحاد الكتاب والنادي الاجتماعي الذي أشارك في عضويته ، لم أنظر إلى الانتخابات أو الاستفتاءات منذ أن وعيت عليها إلا باعتبارها نوعاً من العبث السياسي واللامعقول الاجتماعي، وبالتالي فكل ما ينتمي إلى تلك العمليات إضاعة للوقت ، مادامت النتائج معروفة مسبقاً فلماذا المشاركة في عملية تستهدف القول أن كل شيء موجود وهو في الحقيقة غير موجود ، غير أن البيروقراطية المصرية المترسدة عبر آلاف السنين يمكنها التحايل على أعقد الأوضاع ، يمكنها تحويل قرارات كبرى إلى مجرد حبر على ورق ، وتحويل دلائل البراءة إلى إدانة ، وابتکار الأسباب التي تحيل البريء إلى متهم ، الأساليب عديدة والحجج قائمة ، فقط بعد أن تصدر الإشارة عندئذ تتحرك آليات شتى بعضها يمكن رصده أو الاستدلال عليه والأخر خفي مهما حاولنا الاستدلال عليه رغم وضوحيه ومثوله للعيان !

هكذا فصلت من عملى مع حوالي مائة وعشرين كاتباً من المع مبدعى مصر ، أولهم توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ، لكن لم

تضمّنها قائمة الرابع من فبراير وقيل أن ذلك تم بناء على نصيحة الدكتور أحمد كمال أبو المجد وزير الإعلام وقتئذ لأنهما علماً شامخان وبالتالي سيمثل الأمر فضيحة ، غير أن يوسف إدريس ولويس عوض كانوا في القائمة المعلنة إلى جانب المع أدباء وصحفيي مصر ، أعقب إعلان القائمة منعنا من العمل ، بل منعنا من الدخول إلى المؤسسات الصحفية التي ننتمي إليها ، ولم يعد أمامنا إلا النقابة التي حاولت جاهدة إيقاف تأثير هذا القرار الأحمق والذي كان تجربة مصغرة لما جرى بعد سبع سنوات في سبتمبر عام ثمانين عندما تم اعتقال كافة ممثلي القوى السياسية في مصر ، وعزل البابا شنودة وكان ذلك إيذاناً بأحداث المنصة الدرامية ، مررت بشهور صعبة بل لعلها أشد مراحل حياتي معاناة اعتبراً من فبراير وحتى أول أكتوبر الذي عدنا فيه إلى العمل بقرار من الرئيس السادات قبل السادس من أكتوبر ، حتى الآن لم أدون وقائع تلك الأيام لكن ما أذكره منها تلك العزلة ، أصعب الظروف التي مررت بها لم تمنعني من القراءة والكتابة ، بل إنني أيام الحبس الانفرادي في القلعة كنت أقرأ من خلال الذاكرة صفحات عديدة من كتب معينة أحاول استدعاءها ، وفي مزرعة طرة أتقنت الكتابة على ورق السجائر الخفيف «البفرة» ، عندما سافرت إلى الولايات المتحدة ، صحت معى ما أطلقت عليه الخلاصة الكتب التي أتمنى أن أصحبها معى حتى في مرقدي الأخير لو جاز ذلك شرعاً ، كان الأطباء يتطلعون بدهشة إلى صف

الكتب الذى وضعته فوق قاعدة النافذة ، كتاب الخروج إلى النهار المصرى القديم ، والكتاب المقدس الحاوی للعهد القديم والإنجيل ، القرآن الكريم ، الفتوحات المکية، خطط المcriزى ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، موبى ديك ، يوميات منزل الموتى ، أعمال تشیخوف ، القضية ، أشعار حافظ وسعدى وحماسة أبي تمام .

ألف ليلة وليلة ، فى اليوم التالى لفارة غرفة العناية المركزية والتى لم أكن واعياً فيها بما يجرى لى ، بدأت القراءة على الفور ، كان السرير الذى يتحرك بالضغط على أزرار فى متناولى يسمح لى بوضع يمكننى من القراءة وإذا أردت تبديل الكتاب أضغط زراً ، تجىء المرضية ، أشير إلى الكتاب بدقة إذ أنها لا تعرف لغتى ، خلال فبراير عام ثلاثة وسبعين أمضيت فى شققنا التى انتقلنا إليها من درب الطبلوى ، كانت فى الطابق الثامن من عمارة مطلة على ميدان باب الشعرية حوالى شهرين ، لم أر الطريق إلا من خلال النوافذ والشرفة ، كان اتصالى بالأصدقاء عبر الهاتف ، خلال تلك الأيام الستين أجزت القسم الأكبر من روایتى « وقائع حارة الزعفرانى » ، ثمة فترات يتتجنب الإنسان محواها من ذاكرته، منها أيام المعتقل ، والأيام التالية للجمعة أول أكتوبر وحتى إقلاع الطائرة مفارقة مطار فرانكفورت عائداً إلى مصر . حتى الطعام الذى ارتبط بهذه الفترة ، سواء الألماني الذى يخلو من التنوع . أو الصينى الذى أفضله ويفيض بالأطباق المختلف مذاقها ، لكن اضطرارى إلى تناول الوجبات الرئيسية فى هذا المطعم القريب من

الفندق جعلنى لا أميل حتى إلى استعادة شكل الأطباق وليس مذاقها فقط . لا أعرف كيف كنت أبدو في عيون الآخرين ، أصحاب تلك الملامح التي وقع عليها بصرى ، كما وقعت أنظارهم على أثناء جلوسى وحيداً ، مامن مثير للكآبة مثل تناول الطعام بمفردى ، خاصة إذا كان وسط جمع . أكل للشبع وليس للمرة أو التذوق . من مستثيرات الكآبة عندي صور شتى للوحدة الإنسانية، أشدتها إيلاماً ما ارتبط بالطعام .

عندما نقلت قسراً إلى محافظة المنيا عام خمسة وستين ، كان أقسى الأوقات على في رمضان ، عندما يرفع الأذان . تخلو الشوارع ويلتئم شمل الأسر ، أبقى وحيداً منبتاً ، منقطعاً عن أهلى في مواجهة طبق فوق الأرض به بعض الفول ورغيف ، مطاعم المدينة فقيرة جداً ، ومطعم نادى المعلمين بعيد ، أما فتره بقائي في سمالوط فكانت من أصعب المراحل التي مررت بها وأممت استدعاءها بالذاكرة ، كنت أعمل وأقيم في قصر من قصور آل الشريعي ، كان القصر يتكون من ثلاثة طوابق تحيط بها حديقة شاسعة خلو من النبات إلا ما ظهر بعشوائية وغير نظام ، كان الطابق الأول مقرأ لأنوال السجاد اليدوى ، والثانى والثالث خاليان تماماً من أى أثاث أو فرش ، عدد الغرف والصالات يتجاوز الثلاثين ، بعد الرابعة عصراً أصبح بمفردى تماماً . القصر على أطراف المزارع ، لعلها أقسى أوقاتى ، أشد وأنكى من الحبس الانفرادى الذى امتد حوالي أربعين يوماً ، فى الحبس كنت جزءاً

من جمع ، سواء عند اجتماعنا معاً أو عند تفرقنا في زنازين
الحبس الإنفرادي ، في المنيا كنت بمفردي بعد انصراف الموظف
الإداري والفراش والصبية الذين يتعلمون ويعلمون ، في المدن
الصغيرة ، في الجنوب خاصة يكون الغريب الأعزب محاصراً بما
هو مرئي وغير المعain ، بالتقالييد العتيقة بالحذر ، عدم متنانة
الصلة . انضمت أيام ألمانيا إلى تلك الفترات التي لا أرغب سماعها.
أو استعادتها ، لكم كان ظرف غريباً ، عندما أذهب إلى المعرض
وأشارك في ندوة ، أتحدث عن الأدب ، عن الماضي ، عن المستقبل ،
عن الشرق ، عن الغرب ، عن سوء التفahم ، بينما كيس البول
معلق إلى فخذى ومصيرى مجهول ، لا أعرف ماذا سيجرى لي
غداً ؟ ، تحاملت على نفسي والتزمت لوعد قطعته على نفسي
ولأمين الجامعة العربية ، عمرو موسى ، عندما خاطبني أمام
الجمع ، طالباً مني أن أكون مع الجامعة ، ماذا سيقول الرجل لو
أننى لم أظهر في المعرض ؟ ، هذا مما كنت أردده لنفسي ومن أجله
تحملت وتحاملت .

أيام قاهرية

الثانية عشرة ظهراً توقفت أمام المبنى القريب من أحد ميادين المعادى ، تسكن ابنة الدكتور حازم ترك في الطابق الأول ، يقيم عندها لتوليه عنایة ورعاية بعد وصوله من لندن التي أجرى فيها عملية قلب مفتوح ، كنت أشعر بالامتنان للرجل الذي قبل أن يراني في البيت . في نفس الوقت كنت فضولياً . راغباً في رؤية هيئته ، التعرف إليه ، الصلة بين الطبيب والمريض هامة جداً . وأظن أن لها تأثيراً في تقدم العلاج أو تأخره .

فتح لي الباب ، بدا رجلاً بسيطاً ، يتكلم بسرعة ، وينتقل من موضوع إلى آخر في تداعيات لا تنتهي مثل حكاية الريف والمعمرين القدامى به . بدا أنيقاً في ملبوسيه ، أما البيت فكان أثاثه

ينطق بذوق رفيع .

أصغى إلى ، بعد أن فرغت طلب أن يرى القسطرة ، عندما أنزلت السروال ، بمجرد تطلعه إليها بدا غاضباً . قال إنها من نوع ردئ . ليست من السليكون . لكنها مغطاة به ، كما أنها رفيعة ، قطر الأنبوب أربعة عشر ملليمترًا فقط ، قال تعبيراً يعني أنها خطيرة ولم أستفسر منه لماذا الخطورة ؟ لم أبد رغبة في سماع تفسير أو شرح ، كنت أصغى فقط .

« هل انسدت ؟ »

إذن القسطرة يمكن أن تسد بسبب جلطات الدم الذي يظهر أحياناً حول الأنبوب ، أو لأسباب أخرى . حمدت الله أن ذلك لم يحدث ، خاصة خلال أيام فرانكفورت ، تذكرت ما قاله صاحبى المقيم فى برلين عن الحرث الألمانى الشديد تجاه معالجة الضيوف القادمين من العالم الثالث بأمراضهم المزمنة وظهور الأعراض عليهم عند بدء زيارتهم ، حکى لى عن أكثر من واقعة ، أعضاء وفود مدعوة جاءوا ثم أدرکهم الإعياء أو المرض ، تضطر الجهات الداعية إلى تحمل التكاليف ، هل يفسر ذلك استدعاء طبيب طوارئ لى فى ميونيخ ؟ ، ثم الذهاب بى إلى عيادة استقبال عادية لا يوجد بها متخصص ، كان الأمر يتلخص فى معالجة العرض وليس المرض . لم أكن مزوداً بخطاب تأمين ، عندما أدرکت السيدة كريستينا لانجا فى برلين ذلك استخرجت لى خطاباً قدمته لى قبل سفرى إلى فرانكفورت ، عرفت فيما بعد أنه كان مؤرخاً منذ

وصولى ، أى بأش رجعى حتى يغطى تكاليف اليوم الأول الذى بدأت فيه الأزمة .

قال الدكتور حازم إننى سوف استمر على العلاج حتى صباح السبت القادم ، اليوم الثلاثاء عندئذ سوف أقصى فرع الأنابيب الملون بالأزرق ، سينزل ماء تم حقن البالون به ، عندئذ أسحب الأنابيب وتخرج القسطرة ، سيتم مراقبة الموقف ، إذا عاد التبول طبيعياً ينتهى الأمر ، إذا لم يجر ذلك فليس أمامنا إلا دخول المستشفى لإجراء الجراحة .

عدت إلى البيت راضياً ، داعياً للدكتور حازم بتمام الشفاء ، أخبرنى أنه سيمارس العمل في العيادة الأسبوع القادم ، ربما السبت . أهم شيء أننى صرت قريباً منه ، كأنى أعرفه منذ زمن طويل .

تبعد المدة بين ظهر الثلاثاء و Miyad الكشف كأنها نهار طويل . عندما نفتقد الحركة في المكان تتساوى لحظات الزمن ، تبدو متشابهة . هكذا الأمر في السجون . خاصة فترات الحبس الانفرادي مما توقفت أمامه في الزنزانة الصغيرة بالقلعة ، أثناء حبسى عام ستة وستين ، سرعة انقضاء الوقت ، تبدو أن انتفاء الحركة يؤدي إلى قلة الشعور بالزمن ، بثقله ، بكثافته ، ثمة صلة بين الحركة في المكان وانقضاء الأوقات ، هكذا تبدو لي الآن أيامى في البيت متظاراً نتائج العلاج ، كأنها يوم واحد قصير ، غير أنه حافل بالتوقعات ، أتحرك بحرص خشية خطأ ما متصل بذلك

الأنبوب المطل من فتحة القضيب ، المتصل بكيس من البلاستيك أرى فيه تساقط قطرات البول وتجمعها . ما أخشاه أن يحدث شيء ما أثناء نومي يؤدى إلى شدء لذلك كنت حذرا حتى أثناء نعاسى ، مع الكتب والموسيقى تتنفس الوحدة ، خاصة في الأوقات التي أمضيها بمفردي ، بعد خروج زوجتي وابني وابنتي ، كل منهم إلى عمله ، غير أن ما كنت أخافه وأحذره تلك اللحظة ، عندما أنزع القسطرة ، لحظة حاسمة ، يتبين عندها نتيجة العلاج ، إما أنه أثمر ، وجاء بنتيجة إيجابية ، أو يستمر الحصر . عندئذ لا مفر من العملية الجراحية ، ظهر الجمعة تحدثت إلى الدكتور جلال السعيد لأخبره بما جرى ، واحتمال إجراء جراحة ، دائمًا أقول إنني محظوظ به ، بعد تجربة طويلة مع العديد من الأطباء رسوت عنده واستكنت . لديه ذاكرة مدهشة ، إذ يستعيد معى أدق التفاصيل الخاصة بي والتي نسيت بعضها ، توقفت عند تعليقه أن مثل هذه الحالة التي أصفها لابد أن تنتهي بعملية .

مساء الجمعة تحدثت إلى الدكتور حازم ، قال إنه لن يذهب إلى المستشفى قبل يوم الاثنين ، سأله عمما إذا كان ممكنا تأجيل نزع القسطرة إلى صباح الاثنين ، بحيث لو احتاج الأمر إلى دخول المستشفى يمكنني أن أجده هناك ، أبدى موافقة ، من ناحيتي كنت أحقق رغبتي في تأجيل اللحظة الفارقة . كنت أتناول الأقراص بانتظام ، طول مدة تناولها يتبع الفرصة لتفاعلها ، لتأثيرها ، مرة أخرى صباح الاثنين أعلم من الدكتور حازم أنه سيبدأ نشاطه في المستشفى يوم الخميس ، عندما وافق على اقتراحى بنزع القسطرة

صباح الخميس ، أغمضت عيني ارتياحاً ، إنه الهروب من المواجهة ، من المعرفة ، المعرفة مقلقة ، عندما كنت أعمل مراسلاً حربياً في الجبهة ، لم يكن سماع صوت الانفجار في البداية يعني شيئاً ، يتساوى انفجار قذيفة الهاوتزر مع قذيفة الدبابة ، بالتدريج بدأت أكتسب الخبرة التي تؤدي إلى التمييز ، أصبحت قادراً على معرفة نوعية الانفجار وقربه أو بعده ، يثير ذلك القلق أحياناً أو الطمأنينة ، أحياناً لا يرغب الإنسان المعرفة لأنها مقلقة . تؤدي بنا إلى مواجهة وضع أو حقيقة نخشاها خلال تلك الأيام احتملت مرة أخرى . لم يكن ثمة انتصاب على الإطلاق . استيقظت على القذف المموم ، هذه المرة لم أقلق لأن الدكتور محمد حازم ترك طمأننى بعدم وجود خطر . المنى يرتد إلى المثانة وينزل مع البول ، اتصلت مرتين بالصديق عبد الرحمن الأبنودي ، مثلى تماماً جرى له العارض في فرانكفورت ، اتجه من المطار إلى مستشفى الشرطة . كان الأطباء يعالجون سعالاً تمهيداً لإجراء الجراحة ، وهذا مما جرى معى أيضاً . كنت أعاني من كحة جافة ، وكانت سبباً فيما لم أتوقعه ، مساء الأربعاء ، رحت أسعى بشدة ، فوجئت بألم شديد ، غامض لم أعرف له مثيلاً من قبل في مجرى البول وما بين الشرج والخصيتين - الصفن ، خمنت الاحتمال الممكن ، أن يكون السعال قد نتر باللونة القسطرة قليلاً وأنها انحشرت في عنق المثانة ، اتصلت بالدكتور محمد إذ كان هاتف والده المحمول لا يجيب ، أبدى دهشته ، لكنه نصح بإزالة القسطرة على الفور ، رجوت أن يظل الهاتف مفتوحاً ، حتى يمكنني الاتصال به عند أى طارئ يستجد على .

قطعت الأنبوب الفرعى بالمقص ، نزل بعض القطر ، أربع قطرات على الأكثر ، أمسكت بطرف الأنبوب ، سحبته ، عندئذ شعرت مما يشبه الألم . إحساس لم أعرفه قط من قبل . أثق أننى لن أعرفه من بعد ، ثمة أمور تمر بنا مرة واحدة ، مرة فقط ولا تتكرر ، هذا منها ، بسلامة انتزعت القسطرة ، الأنبوب المتصل بالبالون ، البالون مستطيل بعد أن أفرغ من الماء القليل جداً ، مجرد قطرات ، أدركت معنى تعليق الدكتور حازم عندما رأى القسطرة ، وصفها بأنها خطيرة ، اتخذت نفس الوضع الذى اعتدت أن أكون عليه عندما أقف بمفردى في الحمام وأتطلع إلى أسفل ، استطال القضيب قليلاً ، إنه خلو الآن من الأنبوب ، لأول مرة منذ حوالي ثلاثة أسابيع في الوضع الطبيعي ، تطلعت إلى الساعة ، إنها التاسعة والنصف ، أنتظر لحظة التبول ، لحظة خروج البول بشكل طبيعي .

العاشرة ليلاً ..

أتطلع غير مصدق ، يخرج البول كما اعتدت طوال عمري ، لم يكن مصحوباً بألم ، وإن شاب الخروج ضيق ما ، ثمة شيء غامض أقلقنى لكننى لم أستطع تحديده بالضبط ، شربت نصف كوب ماء ، بعد حوالي أربعين دقيقة اتخذت الوضع نفسه تطلعت إلى ما يصدر عنى ، كمية قليلة . لا تتجاوز نصف الكوب العادى . بعد نصف ساعة لاح لى ما يمكن أن يفسر قلقى ، إذ قل القطر ، ليس لأنى لم أشرب الماء الكافى ، لكن ثمة نحول بدا على سمك الخط الذى يبدأ وينتهى فجأة ، عند المرة الرابعة كأن محبساً خفياً

لا أدركه بدأ عمله ، يشحب التدفق ، أستعيد الليل الغميق في ذلك المستشفى الألماني والطبيب المصري بعد نزع القسطرة وتركيب الفتيل المطهر .

سارعت أتصل بالدكتور محمد حازم ترك ، كان في سهرة رمضانية عند أصدقاء له ، أطلعته على أمرى ، فقال باختصار « إنها البروستاتا .. »

طلب مني أن أتوجه إلى المستشفى ، في الطوارئ سألتني بالدكتور محمد عبد الحافظ ، إنه أحد نواب الدكتور حازم ، إنه ممتاز وسيقوم بعمل اللازم ، طلب مني ألا أقلق ، سيتابع من خلال الهاتف ما سيكون .

الواحدة صباحاً

مرتدياً الجلباب فوقه عباءة خفيفة فارقت بيتي تصاحبني زوجتي وابنتي ، يقود السيارة صلاح زميلي في أخبار اليوم ، يعمل سائقاً للعربة المخصصة لي . إنه الحصر الثالث ، رغم قصر المسافة الزمنية وقلة ما شربته منذ نزع القسطرة إلا أن الألم أوعر . أجز على شفتي ، أحذر إطلاق صرخة ألم حتى لا تفزع ابنتي ، المسافة من البيت إلى المستشفى المطل على النيل قصيرة ، لا تتجاوز عشر دقائق بالسيارة لكنها تبدو طويلاً ، مثقلة ، ليس بسبب الألم المتصاعد فقط ، ولكن للجهل بما سيكون ، كيف سينتهى الأمر ؟ ، هل سيحدث ما جرى في ألمانيا ، أين سأكون غداً في مثل هذا الوقت ؟

إلى قسم الطوارئ بالطابق الأول ، الدكتور محمد دون الثلاثين ، ملامحه طيبة ، بدأ العمل على الفور ، غير أنه لم ينجح في إدخال القسطرة ، يطلب من الممرض أخرى أرفع ، الأمر يستغرق وقتاً .

يمضي الوقت ، أصل إلى أفعى مرحلة من الألم ، اضطر إلى الصراخ ، يقول الطبيب الشاب إن الدكتور محمد في الطريق ، سيصل بعد نصف ساعة .

هل سيتم تركيب قسطرة في البطن ؟

يقول إنه الحل المتوقع

أتصور أن الأمر سيتم كما حدث في ميونيخ ، غير أنني أعرف ضرورة إتمام ذلك في غرفة العمليات ، دخولها يعني المستشفى ، تقول زوجتي إنها ستقوم بإجراءات الدخول . عندما اتجهت إلى مكتب الاستقبال قال لها الموظف إنني تأخرت ، عندهم توصية من مدير الإدارة الطبية منذ أسبوعين ، أعرف ذلك ، لكنني أرجأت ظنا مني أن العلاج الطبي سوف يسفر عنه تفادي العملية الجراحية ، غير أنني أستعيد صوت الدكتور جلال السعيد في الهاتف عندما قال مؤكداً أن حالي تلك تحتاج إلى جراحة . يعود الدكتور محمد عبد الحافظ ، يقول إن الدكتور محمد حازم ترك في الطريق ، وأن غرفة العمليات يتم تجهيزها .

تعود ماجدة ، لقد تمت إجراءات الدخول ، كل شيء تم ترتيبه الآن ، تقف ابنتي صامتة تتطلع إلى ، تغالب جزعها وأحاول قمع

ألى على مرأى منها ، أتمدد على النقالة ، يقول الدكتور محمد مبتسماً إنه لا بد من ذلك .

أعرف المدخل المؤدى إلى غرف العمليات فى الطابق الثانى أو الثالث ، سبق لى دخولى عام سبعة وثمانين عندما تم إجراء عملية فتق ، كانت المرة الأولى التى يشق فيها مبضع الجراح جسدي . ما زال الندب الصغير ظاهراً قرب خط التقاء البطن بالفخذ ، فى عام ستة وتسعين أصبح هنا جرح أطول وأعمق ، طوله ثلاثة وعشرين سنتيمتراً الناتج عن جراحة القلب ، فيما يلى ذلك من سنوات رحت أتبع التطورات فى عملية القلب المفتوح ، علمت أن الدكتور كاسيم جروف الذى أجرى الجراحة تمكن من اختصار الفتحة فى الصدر إلى ثلاثة عشر سنتيمتراً فقط . إنه رئيس قسم جراحة القلب فى مستشفى كليفلاند ، ويشرف على الأبحاث الخاصة بالتطوير والتوصىل إلى جديد ، لا تكتفى المستشفيات هناك بما وصلت إليه ، لكن تخصص جزءاً من ميزانيتها للأبحاث وتطوير أساليب العلاج ، هذا الجزء فى كليفلاند . فقط فى قسم القلب مقداره خمسون مليون دولار فى السنة .

من المصعد المستطيل الفسيح أنتقل ممداً على النقالة إلى جناح العمليات ، المر المؤدى تترافق فيه ناقلات المرضى . أمر بحذائهما ، من تمدد عليها ؟ أدخل إلى غرفة وسطها سرير لم أعرف مثله . لبعض اللحظات مرجعياتها فى الذاكرة إذا تشابه الموقف . في ألمانيا تم كل شيء فى غرفة الطوارئ ، دخلتها محصورة وخرجت منها مثقوب البطن ، توقعت أن يجرى هذا مرة أخرى هنا ، لكن ما أمر به مختلف ، أخيراً .. الدكتور محمد حازم .

ابتسامته المطمئنة تطالعني ، يقول إنه كان مع صحب له في المريوطية . سهرة رمضانية وعندما اتصل به الدكتور محمد عبدالحافظ ليقود العربة على الطريق السريع متجاوزاً كافة السرعات المقررة ، أو مئات ممتناً .

يقترب من جانبي طبيب لا أعرف اسمه ، يقول إنني سأتحمل وخزة صغيرة ، أتطلع إليه متسائلاً وهو يشهر حقنة متوسطة الحجم ، يتحسس أوردة يدي ، كل شيء يختلف عما جرى في ..

وقت غير محدد ..

تتدخل الملامح ، أحتاج إلى خطى عبر الوقت ، غير منظورة لأعى ما يحيط بي ، حتى زمن تدويني هنا لا أعرف ، هل أفقت في نفس الليلة نفسها التي دخلت فيها أماليوم التالي ، تقف زوجتي وأبنتي والدكتور محمد عبد الحافظ وشاب عرفت فيما بعد أن اسمه محمود ، ممرض ، أرى الابتسامات المحيطة ، المشجعة ، شيئاً فشيئاً أدرك أنني كنت تحت تأثير المخدر ، برج كلی .
الدكتور محمد حازم لم يقم بتركيب القسطرة عبر البطن كما توقعت . كما حدث في ميونيخ ، بل تم تركيبها في الموضع الطبيعي ، عندما انفردت في دورة المياه الملحقة بالغرفة تطلعت ودهشت . كان الأنبوب أغلظ ، علمت أن سعته ثمانية عشر مليمتراً . أى يزيد أربعة مليمترات عن أنبوب القسطرة الألمانية ، أما الكرة المستقرة داخل المثانة فأخبرنى الدكتور محمد حازم أنه حقنها بخمس عشرة سنتيمتراً من الماء .

مثل أى وافد غريب يبدو فى البداية ضيفاً ثقيلاً على الجسد ، اقتضى الأمر يومين حتى اعتاد الوضع الجديد ، علمت أن الدكتور محمد حازم رفض إدخال القسطرة من البطن وأنه استخدم أدوات مساعدة . هكذا بدأت أيامى فى المستشفى أقامت فى جناح يتكون من حجرتين متصلتين ، مطل تماماً على النيل ، ابتسمت بأسى متذكراً عنوان الرواية الجديدة لأخى عزت القمحاوى « غرفة ترى النيل » والتى استلهم أحداها من المستشفى الذى أقيم به ، لم تكن غرفتى ترى النيل إنما كانت مطلة تماماً على النيل ، فى الأفق الغربى تبدو الأهرام ، سوف أرى الغروب واضحاً . قوياً . تماماً كما كان فى الزمن القديم ، للأسف بدأت مجموعات من المباني القبيحة تظهر على الضفة الغربية للنيل التى انتهكت من أثرياء ومن آخرين رغم القوانين ، غير أنه الفساد المنتشر ، هكذا بدأ تغير المشهد المستمر منذآلاف السنين . اختفاء الأراضى المزروعة الممتدة . ارتفاع المباني الخرسانية ، العشوائية أفقياً ورأياً . هكذا يتوارى الأهرام الذى كان باستطاعتى رؤيته من فوق سطح البيت بالجمالية حتى منتصف الستينات بدون عائق ، النيل وما تبقى من أرض خضراء والأهرام مع المغيب ، مشهد مهيب . رائع لكن الإنسان لا يرى من خلال بصره فقط ، إنما عبر الحال الذى يمر به ، أنتظر الغروب لأتحمل وأقف متبعاً قرص الشمس حتى تمام اختفائه ، استعدت المرات التى تأملته فى اللحظة نفسها ، من فوق سطح فى القاهرة القديمة ، عند شاطئ البحر ، عند المحيط . فى الصحراء ، من خلال نافذة طائرة ، هذا الغروب مقترب بأيام لها

خصوصية عندي . تزامن دخولي المستشفى مع بدء شهر رمضان . أنتظر الغروب كما كنت أتطلع إليه صبياً فتياً ، اللحظة التي سينتهي فيها صيامى وألتحق بالمائدة التي تتحلق حولها الأسرة . عندما سألوني عن موعد وجبة الغداء ، طلبت إحضارها مع موعد الإفطار ، لست بصائم ، يبدأ برنامج الأدوية المعالجة للصدر في الخامسة صباحاً وأقراص أخرى يتوجه تأثيرها إلى المثانة ، غير أنني نفسياً لا أقدر على تناول غذاء في رمضان ، أي كانت الظروف فليس قبل المغيب ، حتى في أيام أكتوبر ، ورغم الفتوى الشرعية للمقاتلين وللمتواجدين بحكم عملهم في الجبهة بجواز الإفطار ، إلا أنني ومعظم المقاتلين في الصفوف الأمامية والخلفية لم نفطر . في تلك الأيام كنت في الثامنة والعشرين ، فياضاً بالحماس والطاقة ، أمضى يومين أو ثلاثة بدون نوم ، أتحرك فجراً من القاهرة إلى القطاع الجنوبي أو الشمالي . أكتب في الثبات والحركة ، ما بين صالة التحرير والرقابة العسكرية في روکسى . العودة . مجرد إغفاءة قصيرة في العربة . في صالة الانتظار بمبني الرقابة .. في صالة تحرير الأخبار ، تطول أو تقصير ، يتجدد معها النشاط . أعود إلى مبني إدارة الشؤون المعنوية في مصر الجديدة . من هناك ننطلق قبل اكتمال الضوء إلى الجبهة . تلك الأيام ، ما أقصاها الآن . كان العنفوان ونصور القصد وسلامة السبيل ، في شهور رمضان التسعة والخمسين التي مرت على تتميز تلك وتبز ، لتلك الأيام خصوصية وموقع في الزمن ، مهما تبدلت الظروف ، سواء أيسرت أو أعسرت أحرص على تبجيلها ، على التزامي .

أيام متشابهة

تلك الأيام تبدو لي كلاً واحداً، رغم استعادتي تعاقب الليل والنهار، لتشابهها تبدو متصلة. لندرة الوقائع المختلفة تخلو من الحدود، في المستشفى كما في السجن، تتماهي الأحداث، ما بين ليلة الدخول والخروج عائداً إلى البيت خمسة عشر يوماً. الاستيقاظ المبكر، تناول الدواء، أقراص مختلفة. جرعات شرب، محاليل تتخذ طريقها إلى داخل الجسم عبر الأنابيب النحيل المغروس في أحد أوردة يدي، كمامات الأكسجين. زيارة الدكتور مصطفى الذهبي اليومية ظهراً. قطعى المرات الطويلة فوق الكرسي المتحرك، تدفعني ممرضة أو ممرض لالتقطان صور الأشعة. أشعة بالأبيض والأسود. أخرى بالألوان، من إحداثها اكتشفت تلك البؤر الدقيقة التي تظهر تكلاساً في بعض الموضع، قال إن إجراء الفحوص عليها سيتم بعد العملية للتأكد من طبيعتها. الدكتور جلال السعيد قال إنه يذكر معاينتها عام ستة وتسعين. أثر لشيء قديم، من رأيه ألا ندخل في متاهة الفحوص وأخذ العينات، رغم خطورة الاحتمالات إلا أننى أرجى التدقيق أو تفحص الأمر. المطلوب اجتياز مرحلة معينة الآن، لنتطلع إلى ما يلى ذلك، لم أكن راغباً في رؤية أحد، لذلك طلبت الرد على كل من يسعى إلى ذلك بأن الزيارة ممنوعة. غير أن الأقربين جاءوا بدون اتصال، شقيقى اسماعيل، أختى نوال التي فوجئت بها تدخل الحجرة وتحضر فك السلك الأول، عزت صديقى وأخى الأقرب، حسن عبد الموجود وإسلام زملائى وهم بمنزلة

أبنائي ، يوسف القعيد صديق العمر ، عماد العبودى الذى نلقبه بالعمدة ، مجمع القيم والأصول ، أصدقاء من القوات المسلحة ، جاءوا بمجرد أن نما إليهم علم ، عرفتهم زمن الحرب ، تتراقب على وجوه المرضات ، أصبحت أعرف مواعيدهن . أمومية الطلة التى تتعامل معى كأننى أصغر منها عمراً ، الأخرى التى تبدو جامدة الملامح ، كأنها تخشى شيئاً ما قد يصدر عنى فجأة ، السمراء ذات العينين الفضوليتين ، تتطلعان إلى فهم شيء ما . أما الذى بدا كأنه ولد مريضاً فهو « محمود » جاء من إحدى قرى الدلتا . قريب ، لم أخل منه . أطلب منه أن يساعدنى على الاستحمام ، لم أخلف إلا يوماً واحداً ، التالى لإجراء الجراحة . عند مواجهة خطر محقق يتعلق أدق ما يتصل بالإنسان بآخرين ربما لا نعرفهم قبل الظروف الطارئة ، وقد لا نراهم أبداً بعد زوال العسر ، عندما توفيت والدى فجأة ، أحاط بنا جiran لم نتزاور معهم ، لم يكن بيننا إلا تبادل الإيماءات أو السلام المتحفظ ، أم محمد تقريباً أقامت معنا ، سيدة جنوبية شهمة ، تأتى إلينا بالوجبات وتقسم أن نأكل ، تماماً كما كانت تفعل أمى ، أستعيد لحظات مارقة شاردة ، التقطها بجازبية الوقت ، أمر بلحظات مؤثرة ، عندما دخل محمد ابني ، من المطار إلى المستشفى رأساً . رغم أننا أخفينا عنه ما جرى ، لكنه كان واثقاً أن ثمة شيئاً ، أحد الأدباء المصريين المقيمين فى لندن ، أخبره أنه رأى فى فرانكفورت وأننى كنت أبدو مجهاً ، مرهقاً ، أيضاً ظهر ذلك اليوم عندما فوجئت بمحمد عودة يدخل الغرفة بصحبة محمد الخولي ، انحنى على مقلباً ، تأثرت حتى طفر

دمعى ، يربطنى به عمر ، وأدين له بالكثير ، يقطب حاجبىه عندما يمر بانفعال قوى ، يبتسم مواجهها محدثه بالجنب . ثمة ما يعكر ضارج الأدوية والعلاج والاستعداد للجراحة .

الأربعة الذى يسبق إجراء الجراحة طلب الدكتور محمد حازم حضورى إلى مستشفى آخر بالمهندسين وجد به جهاز غير متوفى هنا لإجراء فحص نهائى يظهر حجم الغدة بدقة ودرجة التضخم ، هكذا ركبت عربة إسعاف تابعة للمستشفى الذى أقيم به ، للمرة الثانية منذ بدأت الأزمة فى ميونيخ . لكننى فى هذه المرة كنت أجلس بوضع طبيعى ولا يوجد حصر مباغت ، إلى جوارى تجلس زوجتى ، معها هاتفى محمول ، عندما تطلعت إلى أدركت أنها مكالمة هامة ، قالت .

« عمرو موسى .. »

لم يكن قد تحدث بعد . أصفيت إلى صوت السكرتيرة ، إذن .. عرف الرجل بما جرى لى ، جاءنى صوته ، بادرته بالشكر على الاتصال ، رحت أقص عليه بسرعة ما جرى منذ أن رأيته فى ميونيخ والموعد لإجراء الجراحة غداً ، تمر لحظة صمت ، يقول إنه قرأ فى جريدة الشرق الأوسط ملاحظات لى حول المعرض عن اصطحاب أحد الموظفين لزوجته ، وأنه يطالبنى بإثبات الدليل .

« عندك ورق .. عندك إثبات .. »

أدركت أن ثمة خطأ واقعا ، لم أعرف عن أى حوار يتحدث ، وأى موظف وأى زوجة . بدا صوته قاسيا ، مهاجما باستمرار .

قلت إننى سأطلب الجريدة وأرسل إليها توضيحاً ، قال إننى إذا لم أكتب فسيكتب هو ، قلت إننى سأرد موضحاً ، لا أعرف كيف كان يبدو صوتي الذى انسحب إلى درجة محايدة جداً ، حاويا رغبة فى انتهاء هذا الحوار بأسرع ما يمكن ، أسفت لذلك ، فقد كتبت صفحات عديدة منشورة فى أخبار الأدب لدعم المشاركة العربية ولدعم جهود الأمين العام بالتحديد ، خاصة إننى أكن له احتراماً ولم أكن أود أن يحدث أمر كهذا ، ربما أتلمس العذر له لتلك القسوة الغريبة التى ابداها فى الحوار ، ولو أننى فى ظروف مغايرة لكان ردى مختلفاً ، تذكرت تحملى الظروف الطارئة وذهابى إلى فرانكفورت مدفوعاً بالوفاء بوعدى له والمشاركة ، ردت « حظ سيء » ، عندما عدت إلى المستشفى طلبت الجريدة ، بالفعل كان هناك سوء فهم لبعض ما قلته ، اتصلت بالأستاذ عبد اللطيف المناوى ، شرحت له ما جرى ، رجوطه أن يتصل بلندن ويطلب نشر التوضيح بأسرع وقت ، طلب منى إرساله إليه بالفاكس . كتبت التوضيح ، وتلك هى السطور الوحيدة التى كتبتها فى هذه الغرفة ، باستثناء بعض الملاحظات على كتب صحبتها معى وكتت أقرأها بعد أن تصرف ماجدة وابنتى ، أو قبل وصولهما .

يدخل الدكتور حازم ترك بهدوء ، يسرى ولا يمشى ، فى الحادية عشرة صباح الخميس ، يبدو أنيقاً . هادئاً . يقول إننا ستأخر قليلاً لأن غرف العمليات مزدحمة ، فى الثانية إلا الربع ظهرت ممرضة لا أعرفها بصحبة المشرفة على الطابق التى راحت

الدكتور حازم يقف إلى اليسار مرتدياً ملابس غرفة العمليات
الخضراء اللون، تشبه البيجامة، في كليفلاند كانت زرقاء بلون
السماء فيما عدا الجراح نفسه الذي يرتدي البياض، أراه منحنياً،
مستغرقاً تماماً لا يلتفت يمنة أو يسرة، لا يومئ، ولا يتحدث،
كأنه في لحظة إبداع، حدثني صديقى الدكتور فوزى اسطفانوس
الذى قام بتخديرى في كليفلاند عن الطاقة الروحية التى يختص
بها الجراح، عن التكوين الخاص الذى يتميزون به، الدكتور
محمد حازم يقف أمامه، إنه ساعده، لم يتحدث إلى سوى مرة
واحدة، عندما قال بعد حوالى نصف ساعة.

«الدكتور حازم في الوضع الذي حدثك عنه ..»

قال لى قبل أيام إنه ينفرد بوضع خاص يتخذه عند انتزاع
البروستاتا ، إذ يدبر ظهره للحرب المفتوح ، وبإيهامه بنزعها ، إنه

الوضع الأمثل لتمكّنه . بعد دقائق سألت الطبيب المساعد الذي يتطلع إلى وجهي ، يتابع حالى .

« خلاص .. »

أو ما

« خلاص .. »

يعود الدكتور حازم إلى انحناءاته المتقانية ، يتخذ أحدهم ركناً قصياً ، يرفع أذان العصر ، أذان العصر في غرفة العمليات ! ، كنت مغمضاً عيني ، عندما سمعت طبيباً يبدو أنه كان يعبر الحجرة ، أو دخلها لسبب ما ..

« الله .. الله .. الله ينور .. »

يحيى الدكتور حازم ، إيقاع الكلمات كأنه حفل لمطرب شهير واحد الذين أخذتهم النشوة يصبح مستحسنًا ، تفاصيل خاصة لا يمكن أن تحدث إلا عندنا ، في هذا المكان الذي ننتمي إليه .

يفرغ الدكتور حازم ، ينصرف منفرداً . ينحني قليلاً إلى الأمام ، كأنه فرغ من عمل إبداعي أنهكه ، يبدو تعبه من نوع خاص ، إنه ذلك التعب الناتج عن الاستغراق العميق ، عن التركيز . يكمل الدكتور محمد الأمر ، خيطة الداخل والخارج ، تركيب الدرنقة التي سأعاني من الجرح الذي ترتب على إدخالها مدة حتى يندمل تماماً .

يقول الدكتور محمد .

« حمدًا لله على السلامة .. »

يدفع بي مرض مبتسماً إلى الممر ، بعض الأسرة النقالة عليها
مرضى ينتظرون تمام الإفادة .

« الدنيا زحمة .. إيه رأيك تركن جنب الشباك وتبص على النيل
شوية .. »

نافذة مفتوحة ، منظور لم أتوقع رؤية النهر منه ، ما بين
الجراحية وانتقالى إلى غرفة العناية المركزية التي أصر الدكتور
جلال السعيد علي أن أمضى الليلة فيها ، لم أعرف لماذا ؟ ولم
أعرف ماذا ينتظرنى ، كنت مركزاً تماماً في التطلع إلى الخارج ،
بإمكانى أن أرى السماء من رقدتى تلك أكثر مما أرى النيل ، ألمح
طائرة الخطوط الفرنسية ، الألوان الزرقاء والحمراء على الذيل .
أعرف موعد تلك الرحلة . لطالما ركبتها ، تتجه إلى مطار القاهرة .
ترى من يتطلع إلى النقطة التي أ مثل عندها . وإلى أية نقطة من
الخلاء أنظر بعد أن عبرت السماء القاهرة الصيفية اللانهائية .

سيرجى بونتواز

السابعة إلا الرابع

عندما نزلنا من الحافلة التي لم يتبق داخلها إلا راكبة واحدة كان الضباب أشد كثافة ، أنفاسنا تخرج بخاراً أبيض ، أحياناً يغوص جزء من حضورها الحسى في ذلك اللون العالق ، والذى لا يمكن الإمساك بقوام له . بالتأكيد يتوارى بعض عنها ، في مثل هذا الحال يصبح الخطو حذراً ، أحياناً من الصعب رؤية مواضع الخطو ، لو لا تلك اللافتة التي تلمع حروفها الفوسفورية لما عرفنا الاتجاه إلى مبني المستشفى ، واضح أنها أهم منشأة هنا ، اللافتة ليست بمفردها ، إنما تليها أخرى في الاتجاه نفسه ، وعندما وصلنا إلى ما المستنتج أنه مفترق طرق ، كان ثمة لافتة تشير إلى مكتب الاستقبال .

خضنا في الضباب ، خطواتنا إلى نفس الاتجاه نفسه ، وصلنا

إلى مدخل من الحجر يتخاله بوابة تفضى إلى مكتب، زجاجى يجلس داخله موظف نتتظر معه من خلال مكبر صوت دقيق الحجم ، تحدثت ماجدة إليه ، ذكرت رقم البليب الخاص بالدكتور خليل ، أشار الموظف إلى صالة انتظار تليه مباشرة .. اجتازنا الباب الزجاجى الذى فتحه من عنده ، تتشابه مداخل المستشفيات ، خاصة الحديث منها ، كأن المصمم واحد ، فيما عدا مستشفى شاريته فى برلين الذى ذكرنى بقصر العينى القديم فجميع المستشفيات التى مررت بها متقاربة التصميم ، جوهر تلك المداخل واحد مهما تعددت محاولات التجميل أو إخفاء طبيعة المبنى ، تظل المستشفيات من الأماكن الاستثنائية ، يتتشابه الدخول إليها مع الولوج إلى الفنادق ومحطات السفر أيا كانت الوسائل سواء محطات القطارات أو المطارات أو الموانئ ، ثمة ما يجمع بين أماكن العلاج والإقامة الموقوتة والرحيل أو الوصول ، إنه الاستثناء من الإقامة ، من استمرار العادة ، ما أفنانه ، إنه اختلال المسار . لذلك يكون الدخول إلى أحد تلك الأماكن مستوفزاً ، مستنفرأً من داخله ، متطلعأً إلى ما سيكون ، ما هو متوقع وغير معلوم . مهما بدا هادئاً أو متباطئاً في خطوه ، أحياناً أرى نفسي بعيون الآخرين ، ها إنذا أجتاز المدخل المؤدى إلى صميم مستشفى سرجى بونتواز ، أنا القادم من بعيد ، جرحى لم يندمل بعد ، بعد استئصال تام للغدة التي كانت تكفل استمرارى المادى بعد رحيلى ، صحيح أننى أب لثمرتين صالحتين ، محمد الذى يقترب من الثلاثين الآن ، و Mage ، التى ستقضى عامها الرابع والعشرين العام القادم ، صحيح أنه لم يكن فى خطتنا الإنجاب مرة أخرى ، بعد شهور خمسة أتم عامى

الستين ، لكن ثمة فارقاً بين أن يمتلك الإنسان الإمكانيّة وألا يستثمرها بقراره ، بإرادته وبين أن تستأصل منه ، أن يُحرم منها ، أصبحت مثل الشجرة غير المثمرة والتى قد يتتحول وجودها في لحظة ما إلى عقبة في سبيل أشجار أخرى أكثر فائدة ، مثمرة ، اجتياز المدخل المؤدية إلى مثل تلك الأماكن نتائج بدايات ، يأتي في مختتم تطورات وتراكمات طويلة ، بعضها يمكن الوعي به ، وكثير منه خفي لا يُبَيَّن ، لا يدركه المعنى بالأمر ، رغم كل ما يلحقه ، اجتياز تلك المدخل بدايات لأحوال قد تكون مختلفة تماماً ، عندما اجتازت مدخل (هـ) بمستشفى كليفلاند أول أيام وصولي ذات يوم من يوليو عام ستة وتسعين ، لم أكن ذلك الشخص الذي خرج منه بعد ثلاثة أسابيع منها فترة الإقامة والعلاج ، مبتدئاً رحلة العودة إلى الوطن ، الوطن ، الوطن ليس معنى مجرداً ، ليس تعصباً لمكان بعيشه ، وأهل محدودين ، وأصدقاء لهم ملامح في الذاكرة والوجودان ، إنه لحظات العمر موزعة على النجاد والثانيا والظلال وإصداء النقوش المحفورة في الأزمنة المولية ، من هنا كان حبورى وسريانى عند وصولي مطار القاهرة ، خطوى فرحاً رغم ألمى وما ألم بي ، يتوق البعض عند مداهمتهم بالمرض ، عندما تدركهم العلة إلى السفر خارج الديار لتلقى العلاج ، غير أننى كنت بالفعل خارج مستقرى ، وعندما أدركتنى ما لم أتوقعه قط . كنت توافقاً ، متطلعاً إلى العودة ، إلى الخطوط فوق الأرض التي أعرف ، في عام ستة وتسعين عندما بدأت الآلام تجتاحنى كنت راغباً في المكث . في إجراء الجراحة بالقاهرة ، غير أن قرار طبىبي وصديقى الذى أمتثل لكل ما يقرره ، جلال السعيد كان صارماً ، فالعملية

معقدة ، جراحة للصممات وللشرايين ، في ذلك الوقت كانت تعد من العمليات الصعبة ، والأطباء الذين يتقنون الجمع بين كليهما بمهارة معدودون في العالم ، لن أنسى لحظة نطق الدكتور جلال باسم الجراح المقترن .

« كاسيجروف .. »

يحمل الاسم مالا يمكن إدراكه ، « كاسيجروف » من هو ؟ ، من أين جاء و إلى أين ذلك الذي قدر له أن يشق صدرى ويكشف قلبي ؟ . لقد فصلت الأمر كلّه في تدويني الأول الذي ذكرت فيه ماجرى لي في الأزمة الكبرى عام ستة وتسعين وعنوانه « يوميات القلب المفتوح » فليراجعه من يرغب .

لم يكن في صالة الانتظار إلا أربعة ، سيدة عجوز تتطلع أمامها ولا تحيد ، شاب يضع يديه في جيبه سترته ، رجل يرتدي نظارة طبية إطارها معدني ، يبدو قلقاً ، يلتفت حوله ثم يستقر على وضع النظر إلى الأرض ، أما الرابع فمتطلع إلى السقف ، ظهرت من الممر ممرضة أو حكيمة - لا أدرى - تمسك بورقة صغيرة ، نطقت اسمها ، إذن .. ذو النظارة المعدنية اسمه فنسان ، عندما يقترن الاسم بالإنسان يكتسب حضوراً مغايراً ، يتسم بصفات ما غير المعاينة بالنظر ، يصير له إطار خفي . أهذا كان المصريون القدماء يحيطون الاسم بالخرطوش . الإطار ؟ ، ربما نعم . ربما للحماية ، ربما رمز لدورة الوقت الخاصة بكل اسم ، ربما رمز للوجود ، غاب فنسان الذي قرنت حضوره بنظارته المعدنية . اختفى في الممر المؤدي إلى الداخل ولم أعرف عنه شيئاً ولن أعرف ، فهو مريض أم زائر ؟ . لو أن الإنسان ألمًّ بتفاصيل كل من

يعبرون دائرة بصره لما استطاع ولما استوعب ! .
يظهر خليل ولكن من مدخل آخر ، يرتدى معطفاً أبيض ،
وملابس غرفة العمليات ، من قماش أبيض قطنى ، فى كليفلاند
تبدو المراتب من ألوان الملابس ، الجراح الأكبر ، يرتدى أيضاً
البياض .

« أهلاً جمال .. أهلاً ماجدة »
تناول منى المطاريف الحاوية لصور الأشعة .
« تفضلوا .. »

عبر الممر الطويل المؤدى إلى غرفة جهاز الأشعة مررنا بصالات
مختلفة أحجامها ، إحداها فسيحة كل مقاعدها مشغولة ، بعضهم
ينتظر على مقاعد متحركة . ربما حالة كشف ، كل حركة فى
المستشفيات مؤدية إلى معنى ، ذات دلالة ، فتلك المرضية سريعة
الخطى ربما تهم لتلحق بمريض فى حالة حرجة ، وحامل الزجاجة
الصغيرة ذاك ربما يحمل دواءً استثنائياً عاجلاً يتوقف عليه مصير
إنسان ما ، وهذا الطبيب الذى تتدلى سماعة الكشف من حول عنقه
ربما فرغ من سماع نبض يتهاوى أو فى طريقه .

يشير خليل إلى مقعد مستطيل ، دكة ، يطلب منا الانتظار ، يلتج
باباً عريضاً مؤدياً . المكان هادئ ، خلو من المرضى ، فى نهاية
الطرقه باب كتب فوقه جملة فهمت منها كلمة (البول) ، يورين ،
النطق نفسه بالفرنسية والإنجليزية ، أورولوجو بالألمانية ، قمت
متمهلاً ، اقتربت لألقى نظرة ، لم يكن هناك أحد ، من خلال
الفتارين الزجاجية تمكنت من تمييز القساطر فى أغلفتها الواقية ،
الغريب أننى كنت أدقق فى التفاصيل ، أتفرج ، أتأمل ، وكأن تلك

المظاريف التي أخذها خليل لاتعنيني ، كأنها تخص شخصاً آخر
جئت من أجله ، بل إنني حتى غير منزعج عليه ، كأن أمره
لا يهمني ، لماذا جئت إذن ؟ لماذا خضت في هذا الضباب الذي
يشكل خلفيّة لذلك الوقت ؟ ، هذا حال غالب على في الأعوام
الأخيرة ، ربما لما مررت به خلال السنوات الخمسة عشرة
الأخيرة ، بدءاً من عملية الفتق ، إلى جراحة القلب ، إلى جراحة
استئصال البروستاتا ، أول عضو يتم إقصاؤه عنى ، عندما أتجدد
من ملابسي ، أقف متأملاً جسدي قبل أن أفتح صنبور الدش ،
ذلك الشق فوق الصرة والأخر تحته ، أقول لنفسي ، اكتمل الأمر ،
اتصلت الجراح ، أحقاً قال خالد بن الوليد تلك الجملة المنسوبة
إليه ، والمكتوبة فوق نصب يشبه السلة قائم أمام المسجد الذي
يحمل اسمه ويضم ضريحه في مدينة حمص ، وقد زرته مرتين ،
الأولى زمن الحرب عام ثلاثة وسبعين أثناء اتجاهي إلى اللاذقية
ليلاً ، والثانية عصراً عند زيارتي لسوريا العام الماضي ، الجملة
أتذكر معناها ، « إن جسدي لا يخلو من طعنة رمح أو ضربة
خنجر . وهذا أموت علي فراشى ، ألا نامت أعين الجبناء ! »
ترى من هم الجبناء الذي عناهم سيف الله المسلط ؟ ، هل هم
أشخاص بذواتهم ، أم أنه ^{أراد إصابة معنى} مغزى ؟ .

ما من جسد تجاوز وجوده العقود الستة مثلى إلا ومتخن
بجراح ، جراح تعاقبت مع الزمن ، بعضها مرئى ، والأخر خفى
وهذا أفضحها وأخطرها لأنه يعمل عمله ، يعمق أثره ولا ننتبه إلا
مع خروج الظاهر عنه . ليست آلامنا المحسوسة إلا أعراض للألام
أخرى مرت بنا في صمت ولم تصدر عنا آهه ، لم نطلع عليها

حتى أحباءنا ، لكنها تسرى خفية وتندلع بفترة ففيكون ما يكون ولصيير إلى ما نصيير إليه . هل اكتمال وعيينا بها مصدر لذلك السكون الملم بي ، المدقق على من حيث لا أدرى .

«تفضل يا جمال ..»

لكم تبدو ملامح خليل النعيمى مطمئنة ، باعثة على السكينة ، ملامحه تنبض شفقة ما .

ألوح مبتسماً ل Mage عن اجتيازى الباب الفاصل ، ربما تختلف هيئتى عن ذلك اليوم البعيد ، العاشر من يوليو عام ستة وتسعين ، عندما افترقنا عند الخط الأحمر الذى لا يسمح باجتيازه إلا من له صلة بغرفة العمليات .

الغرفة فسيحة ، يتواسطها جهاز الأشعة المقطوعية ، يشبه فى تكوينه العام ذلك الذى عرفته فى مستشفى السلام قبل إجراء العملية ، لكن ثمة تفاصيل تظهر الاختلاف ، حقنة الصبغة هنا جزء من الجهاز ، يمتد منها أنبوب ينتهي بابرة تنغرس فى الوريد المتد فوق ظهر اليد .

حاجز يترك مساحة مفتوحة إلى غرفة المراقبة أو إدارة الجهاز ، الجزء التحتى منه أشبه بجدار ، يعلوه زجاج شفاف ، يمكن من خلاله رؤية الأربعة ، طبيب وثلاثة مساعدين ، ثلاثة رجال وسيدة شابة ، جميلة ، يجلس كل منهم أمام شاشة تشبه التليفزيون ، أزرار ، مفاتيح ، صور تتقلب ، تتخذ أحجاماً مختلفة ، كأنها لوحة من الفن الحديث .

أتمدد فوق الحامل المتحرك ، يتحرك حتى يصل الصدر تحت القوس المعدنى ، عندئذ يبدأ الأزيز ، خط أحمر يمر بسرعة البرق

في دورة متلاحقة ضوئية، وجه مرسوم بالضوء .

أخضر مبتسם : يعني أن التنفس ممكن .

أصفر عابس ، يعني ضرورة كتم النفس .

تذكرة الجهاز الأقدم في مصر ، تقريباً الصوت نفسه ، سرعة الدورات ، تكرر تقدم وتراجع وثبات الحامل ، بعد حوالي عشر دقائق تقدم خليل قائلاً
« يمكنك النزول الآن .. »

مضى إلى الطبيب ومساعديه ، تبعته ، رحت أتابع الشاشات التي تتبعقب عليها الأشكال المختلفة ، المتدخلة بسرعة ، هذا مني ، هذا أنا ، كنت في تمام تلك الحيادية ، لحت الباب يتحرك ، يُفتح مصراعاه ، يجتازه سرير متحرك ، رجل هرم نصفه الأعلى عار تماماً ، بدءاً من الخصر مغطى ، تتصل به أنابيب عديدة تنتهي كلها إلى أوان مختلف أحجامها ، محاليل ، أجهزة لقياس الضغط وربما أمور أخرى ، بدا الرجل نائماً بعمق ، فارقت غرفة المراقبة ، كان واضحأ أنه قادم للتو من غرفة العمليات .

ترى من هذا ؟

من أى علة عانها ؟ وأية جراحة ؟ ولماذا يأتون به هكذا بسرعة ؟ حوالي خمسة يحيطون بالسرير ، يدفعونه ، دفق مني عطف على من أجهل ، على هذا الهدوء ، الاستسلام الذي يمكن أن أكونه ، أن أحل محله ، وربما كنت هكذا في كليفلاند ، جرى عبر الصمت بيني وبين العجوز الأجنبي عنى لغة ومولداً ، المتصل بي حضوراً ونوعاً ، جرى مايشبه المداولة ، حوار ما ، فهو لن يعرفني أبداً ، ولن يطلع على كنه هذا الغريب الذي تصادف وجوده خلال تلك

اللحظة الحرجة التي يعبرها ، كنت موقناً أن ملامحه التي تجمدت
في اتجاه محدد ، صوب الأبدية ستمثل عندي من بين كافة
مارأيت ، وعانياً هذا اليوم ، لكم تأثرت حتى كدت أطفر ..

يقول خليل مهنياً ، مبتسماً

« مبروك ، أبيض ، مامن خطر .. »

ثم يفسر

« تلك البئر المتكلسة حجمها هائل ، عددها سبعة ، يستحسن
متابعتها كل ثلاثة شهور .. »

تقريباً النتيجة نفسها ، بل الألفاظ نفسها التي أنهى بها
الدكتور مصطفى الذهبي قراره ، إلى ، قال خليل إن الأشعة
سيسلمها إلى غداً ، أما التقرير المفصل فسوف يرسله بالفاكس
إلى القاهرة بعد عودتي ، سأله بصوت خافت عن تكاليف
الفحوص ، ابتسماً قائلاً بلهجة شامية محببة .

« ولو يا جمال .. »

كل ماتم مجاملة له من الإدارة وزملائه ، قال ..
« تعال لنطمئن ماجدة .. »

عند اجتيازى الباب كنت أتطلع إلى ذلك الصامت ، الراقد فوق
السرير الذى أدخل كله تحت القوس المعدنى تأهباً لدوران ذلك
الضوء الأحمر المتلاحق ..

جمال الغيطانى

منتصف ليلة 26 / 27 مارس 2005

المنزل ، المعادى



هناك حكاية شعبية تروى عن إمبراطور مريوماً بргل فقير
وأسأله أن يدعوه ، فدعا الفقير : لينعم الله عليك يا مولاي
بدوام الأكل والشرب وقضاء الحاجة ، واستنكر الإمبراطور
الدعاء فإذا به يأكل ويشرب دون أن يتمكن من قضاء حاجته
حتى أشرف على الموت .

وعند هذا الحد تنتهي الحكاية لأن الإمبراطور لم يكن كاتباً
ليروى لنا إحساسه بمحنة «الحصر» التي كان على استعداد
للتخلي عن عرشه مقابل الخروج منها لكن الروائي الكبير
جمال الغيطانى الذى مر بمحنة مشابهة يرويها لنا فى هذا
الكتاب الذى لا يتعرض فيه لتجربة المرض فقط ، لكنه كتاب
ينتمى إلى أدب الرحلة يروى فيه الغيطانى مشاهداته
وتأملااته بين باريس وميونخ وفرانكفورت ، فى تمازج عجيب بين
متعة المشاهدة وألم الحصر .. إنها رحلة المتألم بعد ذوبتها
وشنحها .

٧ جنبهات



6 222007 800658 >